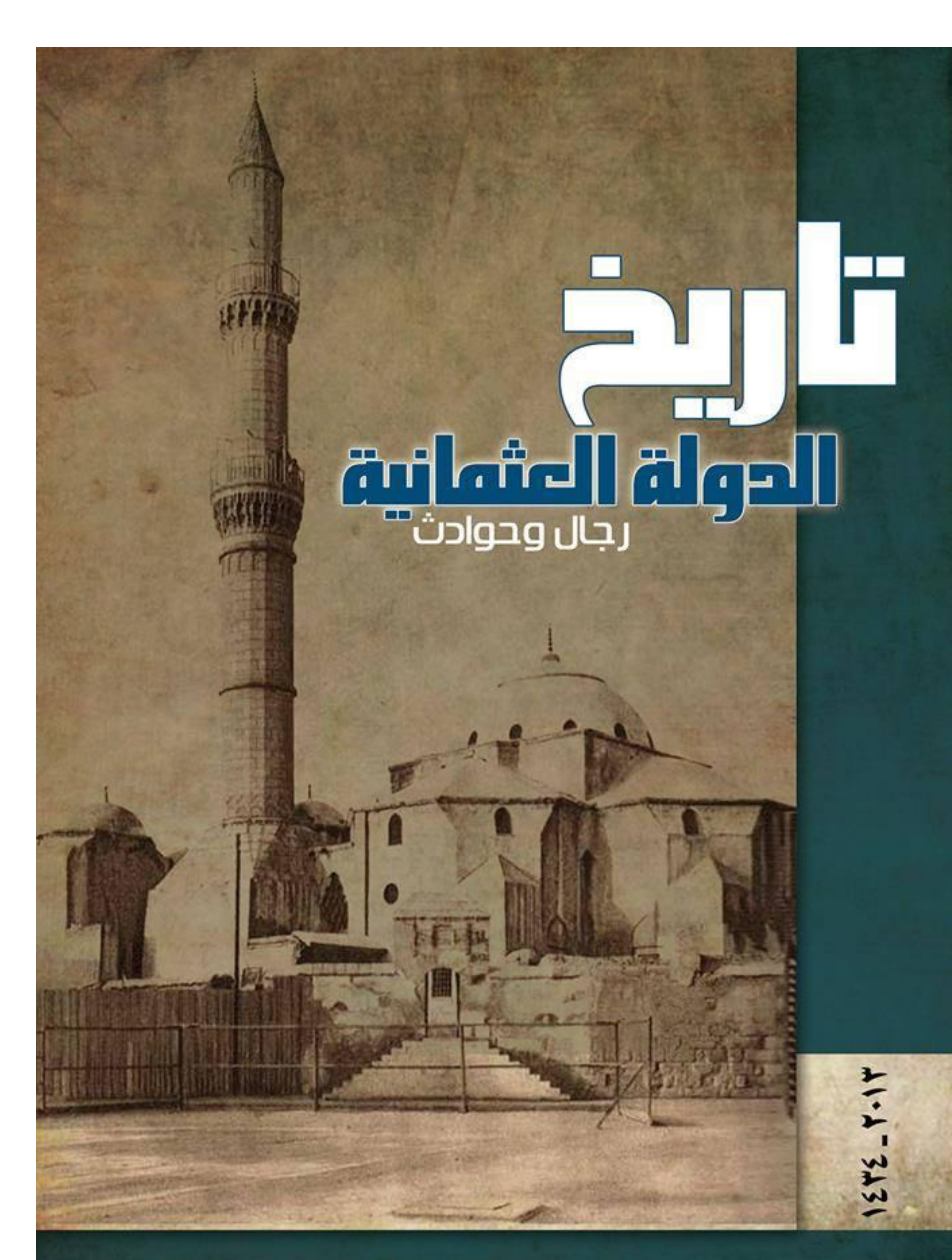


دكتور/ زياد حمد الصميدعي
دكتور/ جمال الدين فالح الكيلاني

تاريخ الدولة العثمانية

رجال وحـــــوادث

"عرض موجز"

دكتور/جمال الدين فالح الكيلاني   دكتور/زياد حمد الصميدعي

اسم الكتاب : تاريخ الدولة العثمانية

تأليف : د/ زياد حمد الصميدعي

د/ جمال الدين فالح الكيلاني

الطبعة الأولى

الناشر : المنظمة المغربية للتربية والثقافة والعلوم

فاس -المغرب

تصنيف الكتاب : م.م.ت.ث.ع 41-2013

بسم الله الرحمن الرحيم

" لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ".

(صدق الله العظيم)

"سورة البقرة
الآية ٢٨٦"

يقول السلطان عبد الحميد الثاني عن القدس :

"لماذا نترك القدس ...إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان وستبقى كذلك، فهي من مدننا المقدسة، وتقع في أرض إسلامية ، لابد أن تظل القدس لنا" .

كلمة المؤرخ الكبير :الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف

بسم الله الرحمن الرحيم

مرت الامة الاسلامية في القرنين السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر للميلاد) بحالة انكماش سياسي وحضاري بدأ بالاطراف الشرقية والغربية واتجه للاقاليم المركزية منها ، وهو ما تجلى بسقوط العراق في المشرق بيد المغول ، وسقوط الاندلس في الغرب بيد الاسبان ، فلقد ادى هذان التطوران الخطيران ، الى تراجع العالم الاسلامي ، امام التحديات ودخوله الى فترة قاسية من تاريخه ،

و بصعود الدولة العثمانية الى الواجهة تغيرت موازين القوى من جديد

واصبحت اسطنبول وسلاطينها ، قوة دولية لا يستهان بها ،

كتبت المؤلفات العديدة في التاريخ العثماني ومحاولة فهمه وتدوينه ، وفي وقتنا الحاضر ، تصدى مع المتصدين، تلميذنا الدكتور جمال الدين فالح الكيلاني و السيد الدكتور زياد حمد الصميدعي، ولقد راجعت الكتاب، ووجدته قد لخص جوانب عدة من التاريخ العثماني،

لا سيما التاريخ السياسي وبعض الجوانب الحضارية المهمة، وأعجبني بوجه خاص استيعابه لتاريخ هذه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف، وفي تضاعيف حقبة زمنية جاوزت الستة قرون عدداً، وأنا أتمنى للكتاب الرواج الذي يستحقه، فهو جدير بذلك، .وأدعو الله تعالى أن يوفق الباحث في كل أعماله العلمية النافعة

أ. د. عماد عبد السلام رؤوف

الفصل الأول

مدخل

في الوقت الذي ضعفت فيه الخلافة العباسية الكلاسيكية في بغداد في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وتنازع فلولها الترك ومن بعدها المغول، ظهر في الجزء الشمالي من آسيا الصغرى دولة تركية هي دولة آل عثمان تلك الدولة التي قدر لها أن تقود العالم الإسلامي نحو، خمسة قرون من الزمان.

حيث كان الصراع بين الأتراك والبيزنطيين مستمراً، والحرب بينهما سجالاً، حتى كانت موقعة ملازكرد عام ٤٦٤/١٠٧١ التي سقط فيها الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجين أسيراً في يد الأتراك السلاجقة، ثم أطلق سراحه وعقدت معاهدة بين الطرفين.

ولما كانت الثغور مستقلة عن الدولة البيزنطية وبالتالي فهي ليست في حمايتها، فسهل ذلك من شن الغارات التركية على تلك الثغور، والاستيلاء على الجزء الشمالي الغربي من آسيا الصغرى من البيزنطيين، وأتخذ الأتراك نيقية مقراً لهم في عام ٤٧٤/١٠٨١.

وصارت بيزنطية نفسها معرضة لخطر الهجوم التركي عليها، لأنها قريبة من قونيه التي استولى عليها الأتراك وفي عام ٤٧٧/١٠٨٤ استولى الأتراك على إمارة إنطاكية.

وفي عام ٤٧٩/١٠٨٦ قام سليمان السلجوقي مواصلاً فتوحاته فهاجم حلب ولكنه في ميدان المعركة.

ثم خلفه أبنه قلج ارسلان الذي حاول أن يقيم قاعدة جديدة في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى ، تنفيذاً لخطة كان رسمها أبوه ولكنه اصطدم بزعيم تركي آخر يدعى وانشمند في عام ٥٠٠/١١٠٦م.

شرع فلج في فتوحاته في الشرق ولكنه قتل في معركة نشبت على ضفاف الخابور وهو في الطريق إلى الموصل عام ٥٠١/١١٠٧.

بعد موت فلج ارسلان أهتم خلفاؤه بمنطقة آسيا الصغرى، وصرفوا النظر عن الاتجاه شرقاً، ومن ثم فقد استولى ابنه مسعود على قونيه وجعل لنفسه قاعدة بقيام دولة إسلامية.

أهتم السلاجقة بالبناء فبنوا المساجد والمدارس، وأعطوا لواجهة المباني اهتماماً، وزينوا الواجهة بالزخارف وبالآيات القرآنية، وكذا صورا من النبات والحيوان.

وهكذا صار للفن التركي خطأ مستقلاً عن الفن الإسلامي، الذي يتصف وبالتجرد ويبعد عن الصور. ثم تحول السلاجقة إلى حياة الترف حتى أظهر الشعب سخطه على الأمراء الذين أنصرف اهتمامهم إلى حياة اللهو وأسباب الدعة وبعدت عنهم روح الجهاد التي اتصفوا بها من قبل.

ثم ظهرت فكرة الجهاد من جديد، وأندفع عدد من رجال الطرق الصوفية، واتجهوا إلى بلاد الأناضول . وبدأوا في الدعوة إلى الجهاد ضد البيزنطيين. ثم ظهرت الإمارات المستقلة في غربي آسيا الصغرى مرة أخرى.

آل عثمان

عندما اجتاح المغول آسيا الصغرى واجهت إحدى قبائل الغز التركية الصعاب والخوف من خطر المغول واتجهت منسحبة من أرض خرسان وألتمسوا الحماية من خوارزم شاه جلال الدين منكبرتي فوجهها جلال الدين إلى المراعي القائمة في شمال غربي أرمنية. ثم عزم سليمان على العودة إلى نجا آسيا الوسطى بعد مقتل جلال الدين، ولكن سليمان قتل قرب الفرات قرب حلب فارتد أحد أبنائه وهو أرطغرل بالقسم الأصغر من القبيلة، وهم نحو مائة أسرة إلى آسيا الصغرى. ليقوم بالعمل مع علاء الدين السلجوقي سلطان قونية. فرحب بهم علاء الدين وأقطعهم أرضاً عند الحدود البيزنطية ، وشجعه على التوسع في الأرض البيزنظية.

أستقر أرطغرل بعشيرته المكونة من نحو مائة أسرة في أراضي المستنقعات قرب الحدود البيزنطية بالفرات الغربي في وادي (قرة صوة) وجيليى طومانيج وأرمني طاغ، وترك له حرية توسيع ممتلكاته، في أرض بيزنطة جيرانه في الشمال.

وفي عام ١٢٥٨/٦٥٦ ولد لأرطغرل ولدا أسماه عثمان، وعثمان هذا نشأ بين الحروب والغزوات.

ولما شب سار على قدم أبيه في محاربة البيزنطيين حتى نال شهرة عظيمة ولقب بقره عثمان، وتزوج بابنة شيخ يسمى (إده بالى) وفي عام ١٢٨١/٦٨٠ توفى أطغرل في سن التسعين.

السلطان عثمان الغزى (٦٩٩-١٢٩٩/٧٢٢-١٣٢٥)

في عام ١٢٩٩/٦٩٩ أعلن عثمان استقلاله وخطب باسمه في (قرة حصار) التي فتحها وأطلق عليها هذا الاسم وجعلها مقراً لحكمه.

ألفت المجاهدون الذين وندوا من أنحاء آسيا الصغرى حول عثمان لمؤازرته في فتوحاته ضد البيزنطيين، وكذا جماعات الصناع والتجار، وعمل جميع هؤلاء في خدمة آل عثمان ومناصرتها.

قاد عثمان جيشه الذي غذى بعناصر سلامية من الشباب المتحمس الذي أوفدته القبائل التركية فتزيد من قوة العثمانيين. بينما القوى الأخرى من المغول والسلاجقة منهمكين في حروبهم، ولذلك فلم يعكروا على العثمانيين صفو حياتهم.

وفي عام ١٣٠٠/٧٠٠ منح السلطان العثماني، (قرة حصار) بأبناه أورخان، هذا بينما كان عثمان في دور الاحتضار في سكود المقر السابق للدولة العثمانية.

السلطان أورخان (١٣٢٥/٧٦٤/٧٢٦-١٣٦٢)

في عام ١٣٢٥/٧٢٦ قام أورخان باحتلال بروسه وتقع على سفح الأولمبوس. ولما توفى السلطان عثمان عام ١٣٢٥/٧٢٦ قام أورخان بدفنه في كنسية القصر.

ثم حولها إلى مسجد ، وتولى الحكم في البلاد وجعل من بروسه المدينة المقدسة لآل عثمان . ثم شرع العثمانيون في إقامة المنشآت الضخمة في المدينة.

ثم استولى أورخان على مدينة أزمير. ثم أنشأ أول جامعة عثمانية وعهد إداراتها وإلى داود القيصرى أحد العلماء الذين تلقوا العلم في مصر.

ولما حاول البيزنطيون استرداد قونية وبعثوا بجيشهم لاستعادتها فشلوا في خطتهم وهزمهم الجيش العثماني في عام ١٣٣٠/٧٣١ .

ثم قام السلطان أورخان بجعل (بروسه) بعد احتلالها عاصمة لسنجق جديد أقطعه لولى عهده مراد الأول، وأطلق عليها أسم (خداوند) أرض الحاكم.

عظمت دولة عثمان بعد الفتوحات التي تمت في عهد أورخان وبفضل أخيه ووزيره علاء الدين ثم تنظيم الجيش، وضربت السكة الجديدة للعثمانيين، غير سكة السلاجقة وضربت باسم أورخان الغازي من الذهب والفضة والنحاس.

كما وضعت القوانين التي تخدم الدولة، فعلاء الدين هو أول وزير في الدولة العثمانية عمل على معالجة السكة واللباس والجيش.

السلطان مراد الأول (٧٦٤-١٣٦٢/٧٩٢-١٣٨٩)

توفى السلطان أورخان وخلفه على عرش السلطنة أبنه مراد الأول، الذي جعل وجهته شبه جزيرة البلقان.

فبعد أن قضى على محاولة بعض الثائرين في أنقره للتخلص من الحكم العثماني، قاد حملة عسكرية إلى البلقان. وأتخذ من ديمتوقة قاعدة حربية وشن حملة شعواء على أمراء البلقان وهزمهم حتى خضعوا لسلطان العثمانيين.

وفي عام ١٣٦٢/٧٦٢ سقطت أدرنة في يد العثمانيين وجعلوها عاصمة لهم في عام ١٣٦٦/٧٦٨.

وقاد البابا أوربانوس حملة صليبية لاسترداد أدرنة من العثمانيين ولكنه فشل في تحقيق هدفه.

وفي عام ١٣٧١/٧٧٣ قام الصرب بشن هجوم على العثمانيين بقيادة (ووقاجين) إلا أن حاجى إيلبكى تغلب عليهم في "جرمن" على ضفاف نهر مريج وهزمهم واستولى على ممتلكاتهم في مقدونيه ثم واصل العثمانيون هجومهم فاستولوا على صوفيا ونيسن في عام ٧٨٧-١٣٨٥/٧٨٨-١٣٨٦.

ثم أكمل خير الدين باشا فتح مقدونية من غاليبولى وبنى الجامع الكبير (أسكى جامع)، وقام بمعاونة العثمانيين في بناء الجامع أنورنوس بك القائد العسكري، ثم استولى العثمانيون على سرى وكانت محل نزاع بين الصرب والبيزنطيين. ثم فتح العثمانيون سالونيك في شمال اليونان.

وأثار تقدم مراد الأول في البلقان مخاوف البلغاريين فعقدوا حلفاً مع الصرب والبشناق، فتصدى لهم الحلف القائد العثماني لا لا شاهين وحارب جيوش الحلفاء عند بلوشنك، ولكن القائد العثماني هزم في المعركة.

وهزم العثمانيون الثائرين في قونيه في عام ١٣٨٦/٧٨٨ .

وفي عام ١٣٨٨/٧٩١ قام علي باشا بن قرة خليل جاندرلى بعبور مجاز نادر على رأس ثلاثين ألف من جنوده وأحتل مدينة ترنوه وشملاً، وحاصر علي باشا القيصر شتشمان في نيقوبوليس على نهر الدانوب.

ثم تمت مصالحة مع القيصر على دفع الجزية وتنازل للعثمانيين عن سسلستر القيصر غدر بالعثمانيين وخرق الاتفاق ، فحاصره العثمانيون عند نيقوبوليس، وفرضوا عليه التسليم دون قيد أو شرط، وأبقوه على العرش.

وفي عام ١٣٨٩/٧٩٢ تحالف الصرب مع المجر والبلغار والألبانين والبشناق.

وفي ميدان الطيور السود (قوصوه) ألتقى العثمانيون بقيادة مراد الأول مع الجيوش المتحالفة، ونشبت معركة عنيفة بين الطرفين انتهت بانتصار العثمانيين واستشهد مراد الأول في الميدان، وهو يتفقد الجرحى إذ هاجمه أحد الجنود الصرب وطعنه بخنجر غدراً. ثم وقع ملك الصرب لازار أسيراً في يد العثمانيين، وأكمل بايزيد الأول المعركة التي انتهت بانتصار العثمانيين انتصاراً باهراً.

بايزيد الأول (٧٩٢-٨٠٦/١٣٨٩-١٤٠٣):

في عام ١٣٨٩/٧٩٢ تولى بايزيد الأول عرش السلطنة وجعل همه الشؤون العسكرية حتى لقب "بيلديرم" لشجاعته في الحروب.

وفي عام ١٣٩٠/٧٩٣ سقطت مدينة آلاشهر في أيدي العثمانيين وهي خر ممتلكات الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى، ولم تمض ثلاث سنوات حتى أخضع العثمانيون البلغار لسلطانهم.

أثارت انتصارات العثمانيين المتلاحقة خوف أوربا الغربية فقام البابا بونيفاسيوس التاسع يدعو للحرب ضد المسلمين في أنحار أوربا، وإذا بالحملة الصليبية تظهر في الأفق من جديد وتمكن سيجسمون ملك المجر من أن يجمع في بودا في عام ١٣٩٦/٧٩٩ جيشاً كبيراً من الفرسان جاءوا إليه من بلدان أوربا، ولكن كان حماس هؤلاء الفرسان للقتال ضد المسلمين فاتراً، ولذا فقد الحق العثمانيون بقيادة بايزيد هزيمة ساحقة بالحملة الصليبية التي قادها البابا وملك المجر وفرسان أوربا الغربية وذلك في موقعة نيقوبوليس.

ثم أتجه بايزيد بعد ذلك إلى شبه جزيرة الموره فأنتقم ممن حالفوا البيزنطيين وخرب في بلادهم.

في عام ١٣٩٤/٧٩٧ بعث السلطان بايزيد الأول إلى أمير المؤمنين بمصر أن يخلع عليه لقب سلطان الروم لكي تزداد هيبته في أنحاء العالم، وأيد السلطان برقوق طلب السلطان بايزيد الأول فأجيب بايزيد إلى طلبه.

وفي تلك الفترة من نهاية القرن الثامن / الرابع عشر الميلادي ظهر الخطر المغولي من جديد يقودهم نتيمورلنك وهو من سلالة جنكيرخان .. وهنا أدرك السلطان العثماني مراد الأول مدى خطورة هؤلاء المغول على سلطانه فعمل على الاستعداد لمواجهتهم.

ولذلك عمد إلى تقوية مركزه في منطقة آسيا فاستولى على قونيه من صهره أمير قرمان في عام ١٣٩١/٧٩٤ .

وفي عام ١٣٩٣/٧٩٦ استولى العثمانيون على مملكة قسطموني الأرمني فالتجأ هو وغيره من الأرمن إلى تيمورلنك ليحتموا به من سطوة العثمانيين، ويحفزوا تيمور على حرب العثمانيين.

ثم ظهر تيمورلنك في آسيا الصغرى في عام ١٤٠٠/٨٠٣ بعدما تعرض العثمانيون لأمير أرزنجان الأرمني، حيث كان تيمور يرى أن أرزنجان يتبعه. فهاجم تيمورلنك سيواس وقتل حاميتها وكان فيهم أرطغرل أكبر أبناء بايزيد.

ولم يواصل تيمورلنك حملته ضد العثمانيين وإنما اتجه في عام ٨٠٤-١٤٠١/٨٠٥-١٤٠٢ إلى قرة باغ فيما وراء القوقاز ليقضى الشتاء هناك. وفي تلك الفترة كان يعد عدته. لمعركة قادمة ضد العثمانيين.

موقعة أنقره بين بايزيد وتيمور

وفي عام ١٤٠٢/٨٠٥ بدأ المغول هجومهم على أنقره فتقدموا من ناحية سهل أنقره من أرزنجان وتوقات وسيواس واستعد بايزيد الأول لملاقاة المغول عند (جبوق أباد) وتقابل الجيشان في صحراء أنقره والعثمانيون في ثلاثمائة ألف والمغول في سبعمائه ألف، وأنهزم العثمانيون. حيث رفض بايزيد ما أشار عليه به تيمور طاش وبقية الأمراء بعدم محاربة تيمورلنك والاكتفاء بسد المضايق والطرق وإهلاك عسكر تيمورلنك جوعاً وعطشاً فرفض بايزيد ذلك.

ومن غير شك فلم يكن حماس الجنود العثمانيين لقتال المغول بنفس حماسهم لقتال البيزنطيين، فالمغول كانوا مسلمين كذلك لم يكن الجنود السلاجقة على استعداد لمواصلة القتال ضد المغول بعدما رأوا قادتهم من السلاجقة يقاتلون في صفوف المغول. هذا فضلاً من الفرق الهائل في العدد بين جيوش المغول وجيوش العثمانيين.

وحينما بدأت المعركة بين الطرفين ورأى بايزيد تقدم الجنود الصرب في مواجهة العدو وخشى أن يطوقهم جيش المغول فأمرهم بايزيد بالأرتداد، وحينئذ تقدم المغول في اتجاه الجيش العثماني، فأسرع السلاجقة بالفرار من الميدان، وواجه بايزيد الموقف يقاتل المغول وهو في نحو خمسةن آلاف من الانكشارية ببسالة حتى جاء الليل. وقد رأى بايزيد أنه لا جدوى من المقاومة فجأ إلى الفرار، ولكنه وقع هو وأبنه فولى في أسر المغول بينما لجأ ولداه الآخران محمد وعيسى إلى قرمان.

وأحسن تيمور معاملة بايزيد وهو في الأسر فلما حاول الهرب وفشل، تغير تيمور منه وعامله بقسوة بالغة.

في عام ١٤٠٣/٨٠٦ توفى بايزيد في الأسر فأمر بدفنه في جامع بروسه.

أما الأمراء السلاجقة فقد أعادهم تيمور إلى إماراتهم في آسيا. وعاد تيمورلنك متجهاً إلى المشرق حيث مقر إقامته في سمرقند، ثم فاجأه الموت وهو في أترار حيث كان يقود حملة عسكرية في بلاد الصين، واسترد العثمانيون أنفاسهم من جديد

السلطان محمد جلبي (٨٠٦-١٤٠٣/٨٢٤-١٤٢١)

ثم قام الصراع على السلطة بين أبناء بايزيد انتهى بانتصار محمد جلبي وهو الخامس من سلاطين آل عثمان.

وقد انضم الصرب مع محمد جلبي بن بايزيد فكافأ محمد الصرب واليونان على مساعدتهم، فمنحهم بعض الامتيازات الإقليمية.

كما أقر معظم الأمراء الصغار في أوربة وآسيا بسيادة محمد بن بايزيد عليهم بعد مقاومة صغيرة، وتعذر عليه إخضاع البنادقة فتركهم بعد هزيمة لإسطوله في ١٤١٦/٨١٩ .

وفي عام ١٤٢١/٨٢٤ توفى السلطان محمد في أدرنه وتولى عرش السلطنة مراد الثاني.

السلطان مراد الثاني (٨٢٤-١٤٥١/٨٥٥ ١٤٢١):

ولما حاول مراد الثاني بسط سلطانه على سالونيك اعترضه البنادقة، واشتروا المدينة من الإمبراطور مانويل وأقر مراد الثاني الاتفاقية مضطراً في مقابل جزية يدفعونها.

ثم هاجم السلطان مراد الثاني مدينة سالونيك في عام ١٤٣٠/٨٣٤ وأحتلها عنوة وظلت آثار الحرب المدمرة في المدينة، حتى عادت كما كانت مزدهرة وعامرة.

ولما اتجه مراد الثاني إلى الشمال ليبسط سلطانه على البلقان. واجهه مقاومة من المجر. ثم أعلن البابا أو جانيوس الرابع لحرب العثمانيين ورحبت بولندا والمجر وكذا في ألمانيا وفرنسا.

وفي عام ١٤٤٣/٨٤٣ وقعت معركة بين العثمانيين والحلف الصليبي الذي قاده الباب أوجانيوس الرابع عند جالوواز بين صوفيا وفليبوبوليس أنتصر فيها الصليبون على العثمانيين، فاضطر السلطان مراد الثاني إلى عقد صلح مدته عشر سنوات، ولكن عارض

البابا هذا الصلح وحرص على نقضه باعتبار أن العهود غير ملزمة إذا عقدت مع غير المؤمنين.

وتقدم مراد الثاني لقتال النصارى تحت أسوار فارنا وحقق انتصاراً حربياً عليهم.

وفي عهد السلطان مراد الثاني ازدهرت الحركة الفكرية، وأخذت اللغة التركية تحل محل اللغتين العربية والفارسية. ونشأ نشاط ثقافي شعبي ديني، استهدف تفسير القرآن وتنمية الحياة الروحية في المجتمع.

وفي عام ١٤٥١/٨٥٥ توفى السلطان مراد الثاني وخلفه على عرش السلطنة محمد الفاتح.

الفصل الثاني

السلطان محمد الفاتح (٨٥٥-٨٨٣/١٤٥١-١٤٧٨)

تولى السلطان محمد الثاني (الفاتح) عرش السلطنة بعد وفاة أبيه مراد الثاني في عام ١٤٥١/٨٥٥ وهو في الحادي والعشرين من عمره وكان مولده في عام ١٤٢٩/٨٣٣.

ومحمد الثاني من أقوى الشخصيات العثمانية الحاكمة. فقد رباه والده تربية ناجحة، فقد أختار له أفضل الشخصيات التي تتولى تدريبه، كما تدرب على شئون الحكم في عهد أبيه فعرف مسؤولية الحكم، وكيفية مواجهة المشاكل والأزمات. وخبر الرجال وعرف نفسه، ومعرفة النفس أولى خطوات النجاح في الحياة، وتعلم نظم الحكم وكيف يكون تصريف شئون الدولة في الدخل والخارج.

لقد واجه السلطان محمد الثاني في فترة حكمه خلال وجود أبيه في الحكم مشاكل التصرف في الأمور منفرداً، فقد تصرف في أمور الحكم دون التشاور مع رجال الدولة وذوي الخبرة في تصريف الأمور. مما أوقعه في مشاكل مع من حوله من رجال الدولة حتى أنهم اشتكوا إلى أبيه السلطان مراد الثاني، فبعث إليه والده وأسدى إليه النصيحة، وكلفه بالاستعانة بمن حوله من كبار رجال الدولة، وذوي الخبرة في الأمور واستجاب محمد لنصائح والده له، فأفاده ذلك في مستقبل أيامه وكان درساً مفيداً له في حياته في الحكم.

لقد ورث السلطان محمد أحسن الصفات من أبيه مراد الثاني، فكان شجاعاً مقداماً شديد المراس يصبر على المكاره ولا يعرف اليأس طريقاً إليه.

تعلم كيف يحارب أعداءه، وكيف يضع الخطط الحربية في ميادين القتال، وأعمال الحصار والقيادة العسكرية.

تعلم ثقافة عصره، تعلم أكثر من لغة فبالإضافة إلى لغته الأصلية، تعلم الفارسية والإغريقية وعرف الإيطالية، ودرس ثقافات هذه اللغات، فساعده ذلك على حسن تدبير الأمور، والإحاطة بتفاصيل ما يعرض عليه من موضوعات، وكان دائم اليقظة .

درس التاريخ وسير العظماء والأبطال، فعرف حياة القياصرة والملوك، والقادة العظام في العالم.

ومن صفات محمد الثاني، الاحتفاظ بأسراره فلا يطلع أحد عليها، مهما كان شأنه حتى يتمكن من تحقيق ما يصبو إليه قبل إفشائه، فيفسد عليه حاله.

نشأ السلطان محمد الثاني في ظروف الحرب فدرس فنون الحرب، وأحب ممارستها، ولم يهمل كل جديد في أسلحة القتال، عند أول ظهورها، بل واستخدمها في حروبه بغير تردد حتى لا يعطى الفرصة لأعدائه فيتمكنوا منه.

أنصرف السلطان محمد الثاني عن حياة الترف والمجون وعاش حياته في جد وإخلاص لبلده وشعبه. فلم يعرف له نديم يجالسه أو محظية يرضى بها شهواته، ولكنه صرف حياته في الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام.

وجمع حوله من يحسنون تدبير الأمور ليعاونوه في إدارة شؤون الدولة في الحرب والسلام، وكان يتشاور مع رجال الدولة، لتحقيق المصلحة العليا للبلاد وإهمال الأهواء الشخصية، وكان يتابع بنفسه تنفيذ ما يصدر من تعليمات وأوامر سلطانية.

والسلطان محمد الثاني هو الذي أرسى قواعد جديدة للدولة العثمانية، ووضع قوانين جديدة لتوطيد أركان الدولة. وبلغت قدرته في الإدارة ووضع القوانين المنظمة للدولة ما جعل من الدولة العثمانية دولة تغلبت على اعتى الدول وقهرتها فتحقق للعثمانيين النصر على أعدائهم في الخارج والاستقرار الداخلي في وقت واحد.

بلغ بالسلطان محمد الثاني درجة عالية من التسامح مع الكنيسة الإغريقية، حتى أدعى المؤرخون الأجانب أن ذلك راجع إلى ضعف الروح الدينية عنده مع أن ما قام به السلطان محمد الثاني مع الكنيسة الإغريقية هو ذات ما يسمح به الإسلام، ولا يتعارض بأي حال من الأحوال مع شريعته لأن يحترم المسيحية واليهودية. لأنها أديان سماوية، وهي لا تتعارض في جوهرها مع الإسلام.

بيزنطة

كانت الدولة البيزنطية جزءاً من الدولة الرومانية الشرقية ولما ضعفت، سيطر عليها البنادقة والجنويون اقتصادياً وطالما اعتدوا على الدولة البيزنطية، حتى إذا صادقت البنادقة عاداها الجنويون .

عاشت بيزنطة، وواجهت من المشاكل ما لا حصر له في الداخل والخارج، على الرغم مما قدمته من خدمات جليلة للمسيحية في أوربا.

وفي أواخر القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي بدأت الدولة البيزنطية تأخذ في الضعف والتفكك، في نفس الوقت الذي كان العثمانيون يعملون على تنظيم شؤونهم والإعداد لتأسيس دولة قوية متماسكة.

كان الإمبراطور البيزنطي هو كل شيء في الدولة، فالحكم ملكي استبدادي، يستمد سلطته من الله، فالإمبراطور هو الملك وهو رجل الدين الذي تخضع له الكنيسة. كما تخضع له الدولة، فهو يملك جميع السلطات في يده.

ولذلك كثرت الثورات ضد الدولة من بين أفراد العائلة الحاكمة ، مما أضعف سلطة الدولة.

وامتلأ البلاط البيزنطي بالأطماع والدسائس والأحقاد في ظل طبقة ارستقراطية مترفة تحيا حياة اللهو والمجون والشعب يعيش في شظف العيش وقهره.

اهتمت الدولة البيزنطية بالجيش وكانت ترى أن الجيش هو الذي يحمى البلاد ويمكنها من مواجهة الأخطار التي تهددها من أعدائها، وطالما عاشت بيزنطة في مركز قوى في أوربا وآسيا.

استخدمت بيزنطية أفراد الشعب في تكوين جيشها كما استخدمت الجنود المرتزقة، واهتمت بيزنطة بالمرتزقة أكثر من غيرهم لما لهم من خبرة بفنون الحرب والقتال وحتى أن الإمبراطور البيزنطي كثيراً ما كان يمنحهم الأموال والأراضي، ويجعلها وراثية في أولادهم من بعدهم.

وهكذا كان الجيش البيزنطي يتكون من أجناس مختلفة يجمعها حب المال والثراء والمغامرة وأحياناً والسلب والنهب وجمع الغنائم.

وطالما كانت قيادة الدولة قوية كان خضوع الجند المرتزقة فإذا ضعفت يد الدولة عليهم عاثوا فساداً في البلاد، فهم كانت لهم أحياء خاصة بهم في العاصمة القسطنطينية ، فيشكلون خطراً على الاستقرار الداخلي، وهذا يضعف الدولة أمام الأعداء.

أما الأسطول البيزنطي فقد كان له السيطرة على البحر المتوسط وقد لعب هذا الأسطول البيزنطي دوراً حيوياً في حياة بيزنطة، ونظراً لأن الحروب كانت تقوم بين بيزنطة والدولة العباسية، وفي غالبيتها حروب برية، فلذلك اهملت بيزنطة الأسطول البحري ولم تعره اهتماماً حتى أن المسلمين تمكنوا من بسط سلطانهم على جزيرة كريت وكذا جزيرة صقلية.

ولكن أعطت بيزنطة أهتمامها للأسطول في النهاية وأخذت القوة البحرية البيزنطية تعود قوية كما كانت إلا أنها سرعان ما عاد الأسطول إلى الضعف ثانية مما ترتب عليه تعذر الدولة البيزنطية من الوقوف في وجه السلاجقة الأتراك لاحتلال آسيا الصغرى وتأسيس دولة لهم فاعتمدت لذلك بيزنطة على أسطول البنادقة والجنويون وغيرهم من جيرانهم.

ثم وقع الاضطراب في بيزنطة حيث قام نزاع بين العائلة الحاكمة لبيزنطة حتى أنهم كانوا يستعينون بأعدائهم ضد بعضهم. فزاد ذلك من ضعف الدولة حتى انتهى الأمر بقيام المرتزقة من نهب سرادق الأمبراطور نفسه حتى فكر في الاستغناء عنهم.

وأما البنادقة والجنويون فإنهم لم يمدوا يد العون لبيزنطة ولكنهم وقفوا منها موقف العداء حين حاولوا الانتقاص من حقوقهم، وفرضوا عليها الامتيازات حتى ضعف اقتصادها، وكان بإمكان بيزنطة الدفاع عن نفسها لو أنها احتفظت بقوتها البحرية، حيث كان يمكنها التصدى للأتراك عندما استولوا على ممتلكاتها في أسيا الصغرى، واستقروا بها، وأسسوا لهم دولة على حساب الممتلكات البيزنطية الأمر الذي أضعف الدولة وأطمع جيرانها فيها فاستولى الصرب والبلغار على أراضي بيزنطية وفي نفس الوقت عجزوا عن الوقوف في وجه العثمانيين.

وهكذا واجهت الدولة البيزنطية وحدها هجمات المغول من ناحية والصرب والبلغار إخوانهم في الدين من ناحية أخرى وجاهدت بيزنطة لتجعل من الصرب والبلغار متحدة تقف معها ولكن دون جدوى، فقد كان الصرب والبلغار لا يرجون لبيزنطة البقاء في جوارهم.

كذلك لم تعمل بيزنطية على التعاون مع التتار لصد العثمانيين والأكثر من ذلك أنها أعانت بعض العثمانيين لتثبيت مراكزهم أمام الآخرين.

كذلك رفض البيزنطيون سلطان بابا روما مفضلين سيطرة العثمانيين عليه، ولما أحست بيزنطية بخطر العثمانيين لجأت إلى أوربا المسيحية، وأعلنت قبولها بوحدة الكنيسة البيزنطية مع بابا روما ولم يفدها ذلك لأن الظروف لم تكن مواتية، بل إن جنوة ساعدت العثمانيين في عهد السلطان مراد الثاني على نقل ستين الف من جنوده إلى شواطئ أوربا.

ومما ساعد على ضعف الدولة البيزنطية سخط الشعب البيزنطي على الدولة لكثرة ما فرضته على الشعب من ضرائب تفوق طاقته، حتى إن الشعب البيزنطي فضل العثمانيين

على البيزنطيين لعدالة الضرائب ولعدالتهم في معاملتهم مع أفراد الشعب مهما كانت عقيدته.

وفي النهاية سقطت بيزنطة في يد العثمانيين في عهد السلطان محمد الثاني.

القسطنطينية

أسس مدينة القسطنطينية ، الإمبراطور الروماني قسطنطين الأكبر، وهو الذي أختارها لتكون عاصمة للدولة الرومانية، وليصعب الدنو منها كما يسهل الدفاع عنها، وصارت مع الأيام بيزنطة عاصمة لدولة عظمى، ومركزاً حضارياً ممتازاً، حتى أطلقوا عليها روما الجديدة، وأعجب بروعتها وجمالها العالم في أوربا والشرق.

لقد امتازت القسطنيطينية لكونها مركزاً للحضارة الأوربية وللذوق والفن والجمال بحيث لا ينافسها من جيرانها في أنحاء أوربا سوى دولة الأندلس الإسلامية في أقصى الغرب الأوروبي حيث كانت تشع منها الحضارة الإسلامية التي طالما أمتد نورها وبهاؤها إلى الشمال الغربي وحتى بقية بلاد أوربا حيث كانت أوربا في العصور الوسطى تغط في نوم عميق.

عاشت القسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية ألف عام كانت فيه مركزاً للثقافة ورمزاً للحضارة. فقد امتلأت القسطنطينية بالميادين الواسعة وبواباتها وكنائسها وملاعبها وحماماتها، وحصونها المنيعة ومعاقلها المشيدة. وطالما وقفت عقبة دون الغازين من مختلف أجناس الأرض.

لقد أشرفت هذه المدينة الفخمة الرائعة على شواطئ أوربا وآسيا، وتميزت بالقصور الإمبراطورية اتى قامت على منحدرات التلال التي يجرى فيها بحر مرمرة.

بلغ عدد سكان هذه المدينة المسيحية المليون، واجتمع فيها الإغريق أهل البلاد الأصليين والأسيويين والروس والبلغار والأوربيين الصقالبة والتجار من مسلمين ومسحيين ومن مختلف أنحاء أوربا كلها.

أزدهرت المدينة بأنواع من الأنشطة الدينية والدنيوية ففيها الملاعب التي تزخر باللاعبين والمتفرجين وفيها يقام الاحتفالات . وكانت المناقشات والمساجلات بين رجال الدين. كما كانت الاعتقادات في الكرامات التي تنسب إلى رجال الدين مسلمين ومسيحيين ولكل، أنصاره ومريديه.

كما أنتشرت الخرافات والأساطير التي يعجب بها ويصدقها العامة.

أقيمت في المدينة القسطنطينية الأبنية الدينية العظيمة من الكنائس الكبرى مثل كنيسة القديسة صوفيا، التي أقامها الإمبراطور جنييان، كان يتوج الأباطرة ويحتفلون فيها بالأعياد، فضلاً عن كونها مركز هاما لها قدرها في حياة الناس.

كما حظى رجال الدين بقوة تأثيرهم في الناس لاعتقادهم أن رجال الدين أكثر قرباً لله منهم.

قال المعاصرون عن هذه الكنيسة أنها " معلقة من السماء بسلسلة ذهبية".

وكما عرف الناس الدين والرهبنة والتمسك بالفضيلة فهم كذلك عرفوا اللهو والمجون، وانتشرت الأماكن المخصصة لإشباع الراغبين في المتع الدنيوية، كما عرفوا مصارعة الحيوانات وأعمال الأكروبات والرياضة البدنية بأنواعها وأعمال التسلية التي تثير الضحك بين الناس.

كما عرفت أنواع من المفاسد التي تضر بالمجتمع، مثل الرشوة وهي رذيلة تقضي بالمجتمعات إلى الحضيض.

كذلك عرفت هذه المدينة الأحياء الفقيرة التي انتشرت فيها الحوارى والأزقة الضيقة المظلمة والموحلة التي أمتلأت بالكلاب واللصوص وقطاع الطرق وكثرت فيها حوادث السرقة والاغتيال والغدر.

كما كان للقسطنطينية وجهها المشرق ففيها درست ثقافة الأغريق حيث كان الأدب اليوناني يدرس في جامعاتها. كما كانت تدرس الكتب الدينية وقصص القديسين والشهداء بجانب دراسة فن الموسيقى.

لقد تعلمت إيطاليا من القسطنطينية فلسفة أفلاطون كما أخذ منها العرب القانون والثقافة اليونانية وآدابها وكان للأباطرة فضل الحفاظ على التراث القديم والعمل على نشره.

وكانت الحكومة في أوج عظمة الدولة البيزنطية تدفق من أموالها على سكان العاصمة وتمدهم بالخبز والنبيذ والزيت.

قدمت إلى القسطنطينية بحكم موقعها الجغرافي في السفن المحملة بأنواع البضائع من مختلف أنحاء الأرض وذلك عن طريق بحار الأبيض والأحمر والأسود فهي في موقع يسهل الوصول إليه.

حاول المسلمون في العصر الإسلامي في أيام الدولة الأموية فتح القسطنطينية ، وبعثت بالحملات الحربية البحرية والبرية واستشهد الكثيرون من الجنود المسلمين ولكن لم يثنهم ذلك عن تكرار المحاولة، وكان للأسطول البيزنطي دوره الكبير في صد هجمات المسلمين خاصة وأنهم استخدموا أساليب الدفاع القوية ضد المسلمين مثل النار الأغريقية، وفي أحدى المعارك البحرية استشهد "أبو أيوب الأنصاري"الصحابي الجليل المشهور ومنذ ذلك الحين أعطى المسلمون أهمية كبرى لهذه المدينة.

ولم تنته الحملات العربية بعد موت الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان.

ففي عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك عاود العرب المحاولة بإرسال حملات ضخمة برية وبحرية، تنفيذاً لوصية الخليفة الأموي الوليد بن عبد الله، للاستيلاء على القسطنطينية .

وفي عهد الخليفة الأموي مسلمة بن عبد الملك هاجم المسلمون القسطنطينية فلجأ الإمبراطور البيزنطي لي والثالث إلى عقد حلف مع البلغار فهزم المسلمين براً وبحراً.

ثم توقفت الحملات البحرية بعد موت مسلمة بن عبد الملك حيث ظهرت الخلافات في الدولة الأموية وشغل المسلمون بشؤونهم الداخلية.

ثم قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية وتحولت الخلافة الإسلامية من دمشق عاصمة الدولة الأموية إلى بغداد عاصمة الدولة الجديدة التي أتخذها العباسيون مقرا لحكمهم.

وأنصرف المسلمون عن محاولاتهم في الحرب ضد البيزنطيين إلى حين.

ثم ظهر الأتراك العثمانيون، وحاصر العثمانيون في عهد بايزيد الأول القسطنطينية ثم اضطر بايزيد لرفع الحصار عنها حين ظهر الخطر المغولي. ثم جاء مراد الثاني فحاصرها ولم يتمكن من النيل منها لضعف الأسطول العثماني كقوة مهاجمة فتركها.

ثم جاء السلطان محمد الثاني وحاول فتح القسطنطينية بعد أن أعد لهذا الفتح عدته. تلك المدينة التي كثيراً ما تعرضت للغزو من البلغار والصليبيين.

وفي أوائل القرن السادس الهجري / الثالث عشر الميلادي فتحها الصليبيون عنوة، ثم عادت القسطنطينية إلى القيام من جديد بعدما انتهى المستعمرون وضعفوا.

بدء الحصار للقسطنطينية:

توفى السلطان مراد الثاني في عام ١٤٥١/٨٥٥م ذلك الذي آثار الرعب في قلوب البيزنطيين لما حققه من انتصارات متتالية عليهم هم وغيرهم ممن حالفهم من دول شبه جزيرة البلقان والمجر وغيرهم.

وصل خبر وفاة مراد الثاني إلى أبنه محمد، وهو في مدينة مغنيسياً في آسيا الصغرى وهو لا يزال في الحادي والعشرين، وحديث عهد بالزواج فلم يذع خبر وفاة والده، وأسرع متجهاً إلى جاليبولى، التي وصلها في غاية السرعة التي أعلن هناك خبر وفاة والدة. وف أدرنه أعلن نفسه سلطاناً للدولة العثمانية باسم محمد الثاني.

وهو حين ولى عرش السلطنة لم يستبعد توزراء أبيه، خليل واسحق، على الرغم من بغضه لهما لتحريضهما أباه عليه حين تولى الحكم في حياة أبية، وأقرهما على ما هم عليه ليستفيد من خبرتهما في إدارة شؤون الدولة. أما بالنسبة لموقف الإمبراطور

البيزنطي قسطنطين فإنه لم يقابل الموقف الجديد بروية وتبصر بل عجل بتخويف السلطان الجديد محمد الثاني وحاول أن يدخل الخوف في قلبه وطالبه بزيادة ما يدفعه للدولة البيزنطية مقابل الاحتفاظ بالأمير أورخان، وإلا فإن بيزنطة سوف تفرج عنه فيثير القلاقل للعثمانيين وينافس السلطان الجديد بالمطالبة بالعرش العثماني.

ورد السلطان محمد الثاني عن قسطنطين بدبلوماسية ولكنه حذره من اللعب بالنار، هو غير أبيه لا يصبر عن الأذى، قال السلطان محمد ذلك لبيزنطة وهو يعلم أنهم لا عهد لا ميثاق وسوابقهم في ذلك يذكرها التاريخ القريب لا البعيد. فقد سبق لبيزنطة معاونة أحد المنشقين ضد الدولة ومهدت له العبور بسفن أعدتها لهذا الغرض.

كما أثارت ضد العثمانيين القلاقل في آسيا الصغرى وإذا فلا بد من القضاء على البيزنطيين لكي يضمن العثمانيون لدولتهم العيش في استقرار .

لم تكن القسطنطينية في حال يسمح لها بالدفاع عن نفسها إذا هاجمها العثمانيون ولذلك أسرع الإمبراطور قسطنطين بإرسال البعثات إلى الدول الأوربية يطلب العون والمساعدة وأعلن أنه في سبيل ذلك سوف يقبل توحيد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية مع الكاثوليك في الغرب الأوربي، وكان هذا ضد رغبات شعب بيزنطية خاصة وأنهم سبق لهم تجربة في ذلك فوجدوا أن هؤلاء الكاثوليك قساة غلاظ، فضلاً عن أنهم ليسوا مؤمنين حقاً بل كفرة لا يحق لهم أن يتحدوا معهم تحت أي ظرف كان. بل أنهم يفضلون عمامة العثمانيين على قبعة الكاثوليك، لسماحة العثمانيين وتعصب الكاثوليك.

لقد حاول باباوات روما محاولات متكررة لكى يوحدوا الكنيستين الشرقية والغربية تحت راية الكنيسة الغربية حتى يتمكنوا من مواجهة الغزو العثماني للبلاد الأوروبية وحتى تعود أوربا قوية كما كانت.

ولكن واجهت هذه الخطة الكثير من المتاعب، حيث تضاربت المصالح السياسية مع الرغبات الدينية وتعذر التوفيق بينها.

لقد نظر كل من الشعبين إلى الآخر نظرة مختلفة، فالشرقيون يرون في الكنيسة الغربية أنهم ملحدون كفره وبالعكس يرى الغربيون في الكنيسة الشرقية أنهم هم الملحدون الكفرة. حتى أن الخطر كان يبدو من الكنيسة الغربية أكثر منه من العثمانيين.

إلا أن الضغط العثماني على بيزنطة جعل الإمبراطور قسطنطين يضطر إلى الموافقة على توحيد الكنيستين تحت سيطرة روما.

لقد لعبت الدول الأوروبية والقسطنطينية معا لعبة القط والفأر، فبيزنطية تلجأ إلى الغرب مستغيثة من الخطر العثماني، فإذا خف عنها هذا الخطر أنصرفت عن أوربا وأدارت ظهرها.

لقد قاسى شعب القسطنطينية البيزنطي من عدوان أوربا الغربية الصليبيين الذين استولوا على القسطنطينية عام ١٢٠٤/٦٠١ ولكن البيزنطيين الإغريق طردوهم في عام ١٢٦١/٦٦٠ وأعادوا تأسيس دولتهم من جديد، ولكنهم لم ينسوا ولم يغفروا لهم قسوتهم تلك.

وفي نفس الوقت تعذر على البابويه تكوين حملة صليبية ضد العثمانيين لنجدة القسطنطينية . لقد وعد الباب بإرسال أسطول لبيزنطة وأرسل الكاردينال إيزيدور رسولا ليشهد خضوع الكنيسة الشرقية لبابا روما.

وفي عام ٨٥٢٥ /١٤٥٢ أتجه الكاردينال إلى القسطنطينية وأقيم حفل في كنيسة القديسة صوفيا حضرة الإمبراطور البيزنطي والبطريرك جريجورى وثلاثمائة قسيس للاحتفال بتوحيد المسيحية. ثم ظهرت المعارضة الشديدة من جانب شعب بيزنطية ووعد المعارضون بالشر الكبير الذي ينتظر البشرية إذا تم هذا الاتحاد ودعوا الرب أن ينقذهم من هذا الشر كما أنقذهم من شرور سابقة.

وفي الجانب العثماني أخذ السلطان محمد الثاني يعد العدة استعداد ليوم المعركة فهو قد عقد العزم على تنفيذ خطته للاستيلاء على القسطنطينية حتى يستريح من هم شغل تفكيره ليل نهار، وقد جهز الخرائط ودرس أماكن المدينة وسبر أغوارها فعرف مواطن الضعف فيها والقوة، ووضع خطته لفتحها.

كما أن السلطان محمد الثاني رفض عرض الإمبراطور البيزنطي في المصالحة، لأنهم كثيراً ما تنكروا للعهود التي قطعوها على أنفسهم فهم ليسوا موضع ثقة حيث أن أحد كبار رجال الدين المسيحي أعلن على الملأ من قومه أنه ليس هناك ما يمنع من نقض العهود التي تتم مع المسلمين لأنهم ليسوا على دين الحق فمن يأمن لعهود تتم مع البيزنطيين بعد ذلك.

أخذ السلطان محمد الثاني في تنظيم شؤون الدولة الداخلية. وعمل على التخلص ممن يشك في أخلاصهم للدولة كما عمل على تأمين حدود الدولة وإخضاع الثورات كما فعل في ولاية قرمان. وعقد صلحاً مع جيرانه وذلك في الوقت الذي يعرف فيه أن المجر لا يمكنها أن تقوم بحركات مناهضة ضد العثمانيين، بعد الدرس الذي لقنه لهم السلطان مراد الثاني قبل ذلك، في موقعة ورنة، ثم موقعة قوصوه.

حدث هذا في نفس الوقت الذي عمل فيه على طمأنة الإمبراطور البيزنطي بأنه ليس في نيته القيام بحركة ضدهم، كذلك قال، مثل ذلك للصقالبة الذين جربوا من قبل قوة العثمانيين وشدة مراسهم في الحروب.

أما محمد الثاني فقد حول مدينة أدرنه إلى ترسانة للسلاح وجعل منها مركزاً للتجميع الجيوش العثمانية أنشأ المسابك لصناعة المدافع ومختلف الأسلحة وعمل جهده ليشرف على البوسفور من الناحية الأوروبية.

كما أنشأ الحصون القوية، فبجانب الحصن الذي سبق أن شيده السلطان بايزيد الأول وهو حصن (أناضولى حصار) ليشرف على مدخل البحر الأسود.

أنشأ السلطان محمد الثاني حصن (روميليا حصار) ليكون الإشراف على البرسفور تاماً من جميع النواحي.

وهكذا أصبح العثمانيون يشرفون على جميع الطرق الشمالية المتجهة إلى القسطنطينية وهكذا أصبح للعثمانيين مراكز مهمة للعمليات الحربية في أوربا، ومحطة كبيرة

للمعدات والذخائر وشحنها بالآلات النارية والمدافع والمكاحل (الرامية بالنفط) كما ترمى هذه المدافع بسهام تخرف الحجر.

كما وضع العثمانيون مدافع تقذف بالبندق الحديد من زنة عشرة أرطال (بما يعادل مائة رطل مصري) وزاد من قوة العثمانيين أن الموقع الذي يقع بين شاطئ البوسفور لا يزيد عن نصف ميل .

أما الجانب البيزنطي فقد عجز عن أن يمنع العثمانيين من هذا البناء والاستعداد المتواصل للحرب.

وبالرغم من أن هذا الإعداد العثماني للحرب جعلهم يسيطرون على بحر مرمره، حتى أنه قد أصبح بإمكانهم غلق الممر البحري للبوسفور، والإشراف على الطرق البحرية المؤدية إلى المدينة من الناحية الجنوبية وكذلك من ناحية الشمال. وبذلك يمكن عزلها من الجنوب والشمال وكذلك من البر وهكذا يتعذر على المدينة استقبال المدد أو أية معونة خارجية.

بل الأدهى من ذلك أن الخوف بلغ بالإمبراطور البيزنطية إلى حد إمداد العمال العثمانيين الذين يشيدون الحصون والقلاع – بالمواد الغذائية – ليتمكنوا من بلوغ غايتهم بأسرع ما يمكن وذلك بقصد التقرب إلى السلطان العثماني.

وقد أتم العثمانيون أعمالهم الحربية في بضعة شهور وعند ذلك أحس البيزنطيون بالخطر المحدث بم وشعروا بقرب سقوط مدينتهم في أيدي العثمانيين.

وتيقظ أخيراً الإمبراطور البيزنطي وأبلغ السلطان محمد الثاني بأن ما يقوم به من عمل مناف للعلاقات الودية القائمة بينهم وهم جيران.

وعند ذلك بادر السلطان العثماني برفض هذا الاحتجاج بل وأنذر الإمبراطور قائلاً له بأن الجانب الشرقي من البوسفور يعيش العثمانيون على ضفافه، أما الجانب الأوروبي فليس في وسع البيزنطيين الدفاع عنه، فهو أذن مضطر لما قام به من أعمال وذكره بما قامت به بيزنطة من منع العثمانيين من العبور في زمن الحرب بين المجر والعثمانيين زمن

السلطان مراد الثاني، وأسقط في يد الإمبراطور فلم يدر ماذا يفعل وهو في موقف ضعف أمام العثمانيين.

وهكذا أخذ العمل يسير بدقة وسرعة والسلطان يشرف بنفسه على المشروع، ويتتبعه. وقد قام ستة آلاف عامل بإتمام هذه المشروعات الحربية، وأخذ كل قائد يشرف بنفسه على ما يخصه من أعمال.

وأظهر القادة وكبار الموظفين إخلاصهم في إتمام هذا العمل وإتقانه إلى أقصى حد ممكن. وهكذا تعذر وصول إمدادات من خارج القسطنطينية إليها بعد إتمام المشروع في عام ١٤٢٥/٨٥٦ واضطر الإمبراطور البيزنطي ليسترضى السلطان العثماني الثائر أن يمد العمال بالطعام.

ولما حاول الإمبراطور البيزنطي تغيير سياسته إزاء العمال العثمانيين بأن أمر بطردهم وإيقاف هذه الأعمال، واجه السلطات العثمانية التي أمرت بمقاومة البيزنطيين بالقوة ومنعهم من التعدى بأى حال من الأحوال.

ونتج عن هذا الموقف من جانب الإمبراطور البيزنطي ورد الفعل المعاكس من جانب العثمانيين أن اضطر السلطان العثماني إلى إعلان الحرب على البيزنطيين باعتبار اعتداءاتهم على العمال العثمانيين أثناء عملهم عملاً عدوانياً ضد الدولة العثمانية لا بد من الرد عليه بإعلان الحرب رسمياً على الدولة البيزنطية.

وأخذ العثمانيون يقومون بمهاجمة المواقع المجاورة لهم وإيقاف جميع السفن المارة عند بوغاز البوسفور وفرض جزية عليهم للمرور عبر البوغاز وأعد الخصم بالمدافع القوية لاستخدامها عند اللزوم.

وهنا أدرك الإمبراطور البيزنطي أن محاولات تهدئة الموقف للمحافظة على السلام مع العثمانيين بأي ثمن لن تجدى شيئاً، حيث ظهرت النوايا سافرة، فليس يرضى العثمانيين شيء، إلا الإستيلاء على بيزنطة نفسها.

وعندئذ عقد الإمبراطور العزم على أن يحصن نفسه وشعبه فأغلق أبواب القسطنطينية وأعلن العثمانيين عن عزمه على الدفاع عن المدينة بكل سبيل حتى ولو اضطر إلى الاستشهاد في سبيل الدفاع عنها. وأمر بالقبض على جميع الأتراك الموجودين داخل المدينة وتحرك السلطان بجيش مكون من خمسين ألف جندي وأتجه إلى أسوار القسطنطينية.

ثم أنسحب منها متجهاً إلى أدرنة بعد ثلاثة أيام، ويبدو أنه قصد بذلك تفقد الأحوال حول المدينة. ولم يتحرك أحد ضد السلطان نتيجة لتحركاته العسكرية.

وعمل السلطان محمد الثاني على منع أية مساعدات قد تصل إلى الإمبراطور عن طريق أخوية فبعث بطورخان إلى بلاد الموره إلى المدينة وقام بحصارها.

ولما اعترضت بعض السفن نقاط الحراسة العثمانية وتجاهلتها، ضربتها القوات العثمانية بالمدافع وقتلت الكثير من رجالها فلم يجرؤ أحد بالعبور من المضيق وتوقفت بذلك حركة المرور.

ثم عقد السلطان محمد الثاني اجتماعاً مع كبار القادة في قصره بأدرنه ورسم خطة الهجوم، وعرفهم بضعف قوة دفاع المدينة، ولما كان عليه العثمانيون من قوة لا بد من المحافظة عليها، وفي سبيل ذلك لا بد من الاستيلاء على القسطنطينية ، خاصة، وأن الظروف مواتيه لذلك لا بد من اغتنامها قبل ضياعها.

كما أنه لا يجب التباطؤ في تنفيذ الخطة والإسراع في ذلك قبل أن يأتيها الإمدادات ويتعذر علينا فتحها. بدأ السلطان محمد الثاني بالاستيلاء على جميع الحصون في تراقيا ليحمى مؤخرة الجيش من المفاجآت.

كما أحتل المدن التي تظل على البحر الأسود وبحر مرمرة ثم زحف بجيشه إلى ضواحي العاصمة فوقع الذعر بين الأهالي وأدرك الناس أن ساعة ضياع المدينة، وسقوطها في أيدي العثمانيين قد حان فأنتشرت القصص والأساطير الخرافية، كما أنتشرت التنبؤات وكثرت التوقعات بالمصير المؤلم الذي بات ينتظر المدينة وفي الجانب البيزنطي أخذ

الإمبراطور ومن معه في المدينة يعملون على تصحينها والاستعداد للدفاع عنها بأقصى ما يستطيعون.

وبعثوا يستغيثون بأوربا الغربية يطلبون النجدة أما السلطان العثماني محمد الثاني، فقد جمع قوامه نحو ربع مليون جندي، وجهز اسطولاً بحرياً ضخماً وملأ الحصون بالسلاح والذخيرة.

وفي عام ١٤٥٣/٨٥٧ بدأ يرسل بالمدافع يبنى السفن وفجأة ظهرت بعض الجنود من أوربا الغربية على السواحل التركية وفاجأوا أهلها فقتلت وأسرت وضربت وبلغ ذلك السلطان فأقسم ليرد على الهجوم بأقسى منه.

وقام أحد رجال السلطان العثماني بإبلاغ الإمبراطور بالاستعدادات الحربية التي قام بها السلطان العثماني عن طريق الاتصال بالإمبراطور، ولم يكن السلطان يشك في إخلاص هذا القائد التركي له إلا أنه عندما نصح السلطان بفك الحصار عن القسطنطينية رفض قبول النصيحة، وصمم على المضي في طريقه للظفر بالمدينة وفتحها عنوة واقتدار.

ثم بلغ السلطان العثماني محمد الثاني أن خليل باشا على اتصال بالأعداء، وعند ذلك قرر السلطان أن يتخلص من هذا القائد الخائن، إذ كيف يتصل أحد القادة لدولة ما بدولة هي في حالة حرب مع دولته دون علم السلطان فهذا في حد ذاته موقف شبهه، وإذا عوقب على ذلك فالدولة على حق.

وهكذا فقد أمر السلطان بضرب عنق خليل باشا بعد أن سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين.

ولم يجد ما وصل إلى القسطنطينية من إمدادات من البندقية وكذا النجدة التي جاء بها الكردينال ايزدور مبعوث الباب والتي بلغ عددها مائتي ألف مقاتل وهذه كلها كانت لا تغنى شيئاً بالنسبة للاستعدادات التي قام بها العثمانيون مبكراً.

ولم تجد الاستغاثات نفعاً. ثم جاء القسطنطينية جون جو ستنيانى بسفينة ومؤن وذخيرة ونحو سبعمائة من الرجال واستقبله الإمبراطور وعينه قائداً للقوات البرية.

كما جاء الكوند نيرى الذي أظهر مهارة وشجاعة جاء مقطوعاً ومعه جماعة للدفاع عن المدينة المقدسة وأخذ جون جوستنياني على عاتقه تنظيم المدافعية ووضع كل جماعة في مكانها المناسب وعمل على تحصين المدينة وقام بتدريب من وجده في حاجة إلى التدريب. وعدل في الخنادق والحصون، وعمل الإمبراطور على تقديم العون لهؤلاء المتطوعين، وحفزهم للدفاع عن المدينة المسيحية.

ثم قرر الإمبراطور وضع سلسلة تمتد من طرف المدينة الشمالي إلى مدينة غلط، المدينة الجنوبية المستقلة وترك للجنويين مهمة الدفاع عنها.

وهكذا أغلق الإمبراطور القرن الذهبي أمام السفن الداخلة وفعلا قدر لهذه السلسلة أن تلعب دوراً في تعطيل مرور السفن الداخلة إلى المدينة.

وفي عام ١٤٥٣/٦٥٨ أتم السلطان محمد الثاني استعداداته لفتح القسطنطينية ، وقد جمع الجيش العثماني من الجنود الأسيويين والأوربيين والفرس والمشاه والباشبوزق وعدد كبير من المسيحيين المرتزقة، ومتلأت قلوب الجنود العثمانيين بالروح المعنوية العالية حيث أخذ المشايخ والعلماء والصوفيون يعملون على تغذيتهم روحياً، فالشهادة أو النصر هي هدفهم في ساحة القتال.

ثم أنضم الخبراء المجريين بالسلاح إلى السطلان العثماني وترك جانب الإمبراطور حيث لم يجد رعاية من جانب الإمبراطور ولكن السلطان العثماني رحب به وأغدق عليه الأموال وساعده على إتمام اختراعه لخدمة الجيش العثماني ولتحقيق النصر على البيزنطيين الذين لم يتحمسوا لجهود هذا العالم المجرى، فأعطوا الفرصة للعثمانيين وأضاعوها من أيديهم بإهمالهم.

الحصار

في عام ١٤٥٣/٨٥٦ ظهر الجيش العثماني في أورق صورة. فالفرق بأعلامها وطبولها وأبواقها وموسيقاها وخيلها ومدافعها ودوابها.

ثم اقام السلطان سرادقاً وأحاطه بالخنادق أمام القديس رومانوس، ثم أتجه السلطان للصلاة، وتبعه الجيش فصلى، ولما وصل الجيش العثماني واكتمل عدده بدأوا في الحصار حول المدينة. واحتل العثمانيون الخط الممتد من بحر مرمرة إلى القرن الذهبي محيطين بأسوار المدينة.

وأعد السلطان عدته فاهتم بتموين الجيش من غذاء وعتاد ومتابعة والتنسيق بين القوات ببعضها بحيث يتعاون الفرسان مع المشاة مع المدفعية في الحصار والهجوم وأشرف السلطان بنفسه على ترتيب القوات فوضع الفرق الأناضولية عن يمينه إلى بحر مرمرة، وعن يساره الفرق الأوربية، والتفت الفرق الإنكشارية حول السلطان في نحو خمسة عشر ألف من النخبة الإنكشارية، وكان عليهم تأييد الهجوم على باب القديس رومانوس حيث هي أضعف النقط في الدفاع عن المدينة.

وبعث السلطان العثماني إلى الإمبراطور يطلب منه تسليم المدينة حقنا للدماء، مع تعهد السلطان باحترام حياة السكان وممتلكاتهم فرفض الإمبراطور العرض.

وبدأ السلطان بتنظيم الجيش، فجعل زغنوش باشا، الألباني الأصل قائداً للجيش غير النظامي ومهمته مراقبة مدينة غلطة من الجنوية من فوق بيرة ومنع أهلها من التدخل لصالح المدينة من المحاصرة.

وجعل صاريجة باشا حاكم روملى قائد للمسيرة ومهمته الهجوم على المدينة من أعلى القرن الذهبي مع الإشراف على سلاح المدفعية، وجعل حاكم الأناضول أسحق باشا على الأناضولية والأسيوية هو ومحمود باشا لخبرتهم وعظيم تجربتهما.

أما السلطان فقد جعل لنفسه قيادة الوسط وأشرك معه فيها خليل باشا. وجعل السلطان محمد الثاني من الأسطول العثماني ليكون حائلاً دون وصول الإمدادات التموينية إلى

المدينة المحاصرة. مع مهاجمة السفن التي تحرس السلسلة التي تغلق القرن الذهبي مع فك الحصار، ومهاجمة القرن الذهبي لفك حصار السلسلة وتمت مهاجمة القسطنطينية من كل الجهات ما عدا القرن الذهبي بسبب السلسلة التي وضعها الإمبراطور لتحمي المدينة من الأعداء وعلى الرغم من أن المدينة قديمة إلا أن السور الذي حولها لم يعط الفرصة للمهاجمين للدخول إليها، ولكن السور الداخلي للمدينة لم يكن بنفس الكفاءة التي عليها السور الخارجي لها.

ووقف ثمانية آلاف من الجنود العثمانيين خلف باب القديس رومانوس. ووقفت مدينة غلطة على الحياد ولم تساعد فريق على الآخر، أما المساعدة التي قدمتها غرب أوربا فلم تكن تفيد المحاصرين لضعفها، فقد بعثوا بثمانية آلاف من الجنود المدربين، منهم ألف يلبسون الدروع على أكتافهم وصدروهم.

وأعد الإمبراطور عدته للدفاع خاصة، عند وادى ليكوس لضعفها وخوف عبور العدو منها إلى داخل المدينة وكلف للدفاع عنها جوجوستنياني، ولم تكن الأسوار في حالة تسمح لها بإقامة المدافع فوقها كما أن المحاصرين لم يكونوا مسلحين تسليحاً جيداً، ولكن كانت عندهم العزيمة للدفاع عن المدينة.

وقام قائد الأسطول العثماني بلطة أو غلى بمراقبة مدخل القرن القرن الذهبي، فهاجم الجزر القريبة في بحر مرمرة وأحرق بعضها، وبدأ يضرب المدينة بالمدافع.

وقاوم المدافعون داخل المدينة، لم يثنهم الهجوم العثماني عن مواصلة الدفاع.

كما قام الأسطول العثماني بمهاجمة السفن التي تحمي مدخل القرن الذهبي ولكن يبدو أن العثمانيين لم يكونوا مدربين على المعارك البحرية ودافعت السفن المسيحية عن نفسها فقاومت الهجوم العثماني وردت على الهجوم بالمثل وقاومته وحاول العثمانيون فك السلسلة ومنعتهم الحامية ولم تمكنهم من السلسلة. وفشل الهجوم العثماني على القرن الذهبي، واضطر الأسطول العثماني إلى الإنسحاب فهلل رجال الحامية فرحين بانتصارهم ومقدرتهم على صد الهجوم العثماني.

وأخذ السلطان محمد الثاني الذي لم يعرف اليأس طريقاً إلى قلبه، أخذ يدبر خطة ثانية وثالثة لكي يهتدى إلى خطة توصله إلى طريق النجاح.

ولما رأى السلطان قدوم سفن لإمداد المدينة بالمؤن والسلاح كلف الأسطول بمنعها والقضاء عليها إلا أن الأسطول فشل في أن يمنع السفن من الوصول إلى هدفها والدخول إلى المدينة.

استخدم العثمانيون في مراكبهم المجداف بينما استخدم الأوربيون للشراع في مراكبهم وساعدت الريح المراكب الأوربية على الفرار من الأسطول العثماني.

وأخيراً اهتدى السلطان العثماني محمد الثاني إلى خطة تساعده على نقل سفن الأسطول العثماني إلى داخل القرن الذهبي.

فقد جمع السلطان الأخشاب التي يحتاجها لكي تنزلق السفن عليها وتعبر من الأرض إلى الماء فتدخل القرن الذهبي وتهاجم العدو من الداخل.

وساعد صغر السفن العثمانية على تنفيذ خطة السلطان العثماني الذي أخذ الحيطة في الدفاع عن مشروعه فيما لو تدخل الإمبراطور لمنعها، ونجحت الفكرة فعلا فنقلوا نحو سبعين سفينة من البسفور براً إلى القرن الذهبي بحراً وذلك في عام ١٤٥٣/٨٥٦.

لقد اعتبر هذا العمل معجزة بمقاييس العصر آنذاك على أن الفكرة نفسها ليست من ابتكار السلطان العثماني وأنما عرفت قديماً. ولكن السلطان بقدرته الفائقة على القيادة وتصميمه على بلوغ أهدافه ساعد على النجاح، فقد دبر العثمانيون نقل السفن من الأرض اليابسة إلى المياه المتدفقة وكأنها وهي تسير على الأرض كانت تسبح في الماء.

لقد نجح المهندسون الأتراك في خطة نقل السفن في ليلة واحدة، أثارت إعجاب الأعداء كما أثارت إعجاب العثمانيين أنفسهم.

وهكذا صارت المدافع العثمانية بإمكانها أن تضرب أهدافها في داخل المدينة.

على أن المدافع العثمانية أثناء نقل السفن لم تعط لأحد الفرصة للهجوم، حيث ظلت المدافع تضرب لترهب العدو، وفعلا تم للعثمانيين ما أرادواز وأخذ البيزنطيون يفكرون كيف يتغلبون على الأسطول العثماني.

وبدأ البيزنطيون خطتهم لتدمير الأسطول العثماني وذلك بتوجيه سفن كبيرة وأخرى صغيرة لمهاجمة الأسطول العثماني. لولا أن قباطنة السفن الإيطالية اختلفوا وفشلت قيادتهم في توجيههم الوجهة الصحيحة.

حيث أن كل قائد كان يريد أن يكون هو البادئ بالهجوم على العثمانيين ليفوز هو بلقب البطل في الحرب ضد العثمانيين. وهكذا نجا الأسطول العثماني من معركة متوقعة لم يكن يعرف كيف سيكون الموقف بعدها ولمن سيكون النصر.

ثم قام الإمبراطور بإحضار مائة وخمسين من الأتراك في المدينة وجمعهم وقام بشنقهم أمام أسوار المدينة وبمرأى من الأتراك المهاجمين.

ثم وقع النزاع بين البنادقة والجنوبين فتدخل الإمبراطور وأوقف المشاجرة بين الفريقين.

ثم فكر السلطان العثماني في عمل قنطرة عائمة يعبر عليها جنوده من الضفة الشرقية للقرن الذهبي إلى الأسوار وأختار لذلك نقطة ضعيفة يسهل الهجوم منها وأخذ المدافعون داخل المدينة ينظمون صفوفهم حتى أن الإمبراطور وفر عليهم الجهد في سبيل الحصول على الطعام وأخذ يوزعه عليهم في أماكن تواجدهم في ميدان القتال.

إلا أن العجز عن الدفاع عن المدينة بدأ يتضح للجميع وهكذا رأى السلطان العثماني البدء بالهجوم المباشر عن المدينة.

ولما رأى عظماء القسطنطينية الخطر المحدث بهم، وكذا البطريرك أجمعوا على خروج الإمبراطور من المدينة للاتصال بالأصدقاء من أنحاء العالم الغربي والعمل على إثارتهم لإنقاذ المدينة من الأتراك العثمانيين المعتدين، إلا أن الإمبراطور رفض الفكرة وفضل البقاء مع المدافعين عن المدينة إلى آخر نقطة دم في جسده.

ويبدو أن الإمبراطور قد غلبته الناحية العاطفية، فكيف يخرج من المدينة ويترك شعبه يدافع وحده عنها، وهكذا اخطأ الإمبراطور لأن خروجه يعني أنه ينشى حكومة له في المنفى –بلغة العصر – تدير حركة المقاومة بحرية قد تمكنه من استمرار المقاومة وجمع

الأصدقاء حوله حتى يضطر المهاجمون إلى فك الحصار والانسحاب ولكن الإمبراطور لم يفعل.

ولجأ العثمانيون إلى استخدام طريقة السراديب كما استخدموا طريقة الحصن المتحرك ولكنهم فشلوا في خططهم هذه جميعها.

سقوط القسطنطينية

أرسلت القسطنطينية بعثة إلى بحر الأرخبيل للتتعرف على الأسطول الذي بعثت به البندقية لمساعدة البيزنطيين ولكن البعثة عادت دون أن تعتر على أثر لهذا الأسطول. ولما وصلت الأخبار إلى الإمبراطور لم يتمالك نفسه وسقطت الدموع من عينيه حزنا على مصير المدينة المقدسة التي ستقع في أيدي الأعداء إن عاجلاً أو آجلاً.

عمل المستشارون حول الإمبراطور جهدهم لينصحوا الإمبراطور بالنجاة بنفسه فقد تتغير الأحوال ويعود إليه سلطانه. إلا أن الإمبراطور أصر على أن يجعل مصيره مرتبطاً بمصير شعبه. ورفض أية حلول تؤدي إلى هروبه من ميدان المعركة.

لقد كان للإمبراطور أفكاره المثالية غير الواقعية فطالما انسحب القائد من ميدان المعركة طالما إنه لا يمكنه تقديم العون للمحاصرين، ولعله يجد الفرصة للانقضاض على الأعداء حيث تكون أمامه الفرصة أكبر لفعل شيء ينقذ به وطنه بدلاً من أن يقع في الأسر.

أما الأتراك العثمانيون فقد واصلوا هجومهم دون توقف ثم ركز العثمانيون جهدهم على ثلاث نقاط كي يحطموا الحاجز المادي ويقتحموا المدينة بعدها.

شدد العثمانيون الضرب على باب ادرنة وباب القديس رومانوس ثم الباب الحربي. ثم عمد السلطان إلى محاولة أخيرة فبعث بأحد كبار قادته وهو إسماعيل حمزة اسفنديار

أوغلى يبلغ الإمبراطور برغبة السلطان في غمد السيوف في جرابها وإيقاف نزيف الدم حرصا على سلامة الشعب البيزنطي وحماية الإمبراطور وتقديم الفرصة له لكي يعيش بقية حياته في استقرار هو وحاسيته في البلوبونيز، وسيكون الجميع في حماية السلطان، فإذا لم يستجيب الإمبراطور فسيكون ذلك وبالا على كل من في المدينة ولكن الإمبراطور لم يستجب لدعوة السلطان . وأعلن تصميمه على البقاء في المدينة مهما كانت الظروف.

أدرك السلطان أن لا مجال غير مواصلة القتال حتى النهاية، وعند ذلك جمع مجلس حرب في عام ٨٥٧هـ/١٥٤٣م في معسكره في الميدان وطلب المشورة من القادة.

فقال خليل باشا، إن الأفضل ترك المدينة الاهتمام بشؤون العثمانيين وتحسين أحوالهم حتى تأتي فرصة مناسبة. وأبدى تخوفه من أن أوربا لن تترك بيزنطية تسقط في يد العثمانيين. وسوف يواجه العثمانيون خطر اجتماع أوربا لحرب العثمانيين في سبيل تحرير بيزنطية مثل البندقية والمجر واللاتين والأغريق. وكان خليل باشا قد بلغ من العمر عتياً. فهو يكره المغامرات ويميل إلى الأستكانة والهدوء.

أما الرأى الآخر الذي نادى به زوغنوس باشا فهو أن من الخير مواصلة القتال حتى تسقط المدينة في يد العثمانيين، وأن الفرصة مواتيه لذلك خاصة وأن الأوربيين منقسمين على أنفسهم ولن يكونوا يداً واحدة في يوم من الأيام، ونصح بالاستمرار في القتال حتى تقع المدينة وتكون عاصمة للعثمانيين والإسلام وقد دخل زوغنوس باشا وهو ألباني الأصل الاسلام وحسن أسلامه، وقد رد السلطان أن هذا الرأى هو الذي يجب أن يؤخذ به. وواصل العثمانيون القتال، وفي الجانب البيزنطي جرح القائد الجنوي جون جوستنياني، وأضطر المحيطين به إلى حمله إلى داخل المدينة ولكنه عاد في اليوم التالي لمواصلة القتال ضد الأعداء العثمانيين.

أما العثمانيون فبدأوا الاستعداد للهجوم النهائي وتسلقوا أسوار القسطنطينية وهم يصيحون بالتكبير وتضرب الطبول وتنفخ الأبواق والمزامير ويبشر الجنود بالغنائم التي تنتظرهم.

أما البيزنطيون فقد شغلهم سؤ الأحوال والمصير المظلم الذي ينتظرهم. فأخذوا يبتهلون إلى الرب لينقذهم ويمنون أنفسهم بنزول الملائكة لتقف معهم وتنقذهم مما هم فيه من كرب وضيق.

وأمر السلطان بأن يتعاون الجيش البري والأسطول ويقتربوا من البر ويستعد لمهاجمة الأسوار على ضفاف القرن الذهبي.

وبدأ السلطان يفتش ويفحص جنوده بدقة وعناية استعداد للمعركة الفاصلة، وجمع السلطان القادة وخطب فيهم فأغراهم بما ينتظرهم من خيرات ومن كنوز وثروات ونساء جميلات وكل ذلك سيكون تحت سلطاننا لنا حرية التصرف.

كما عرفهم بأنهم لا تنقصهم روح الحماس فقد امتلأت نفوسهم وقلوبهم بالحماس، وتلقاها الجنود وبلغ بهم الحماس الغاية وتحقق لهم النصر في كثير من المواقع التي تمت خلال مدة حصار المدينة.

ثم بدأ زوغنوس باشا يهاجم الأسوار التي تواجه قواته وصاريجه باشا يقوم بالهجوم على الثغرات المنتشرة في الأسوار، وقام كل من محمود باشا وأسحاق باشا، ومن ناحيتهم ويتسلقون الأسوار.

كما شددوا الضغط على باب القديس رومانوس حيث يوجد جون جستنيان ومن معه من الطليان والأجانب أما البيزنطيون وقد رأوا المعسكر العثماني يطفئ الأنوار فظن بعضهم أنهم عقدوا العزم على الإنسحاب من الحصار، وأما الغالبية فقد قالوا بأن العثمانيين لن يتراجعوا.

واعتقد كل من الكاثوليك والأرثوذكس أنه على حق والآخر على باطل.

أما الإمبراطور، فلم يتوان عن مواصلة المقاومة ضد العثمانيين حتى آخر رمق في حياتهز ثم جمع الكاثوليك والأرثوذكس والقسس والرهبان وظلوا ينشدون ويبتهلون، والإمبراطور يطلب منهم الاستماتة في الدفاع عن المدينة حتى لا تقع فريسة للأعداء.

بدأ العثمانيون الهجوم عندما حل الظلام واقتربوا من الأسوار، وتقدم الأسطول العثماني وأحتل المواقع المخصصة لة، وهجمت الجيوش العثمانية هجوماً عنيفاً من كل جانب في عدة نقط وركزوا هجومهم في وادي ليكوس.

وأرتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل ودقت نواقيس الكنائس.

وبدأ الهجوم العثماني بالطليعة من المرتزقة حتى يستنزفوا قوة العدو الدفاعية ويستهلك نخائره الحربية وفعلاً تمكن طلائع الجيش من إرهاق العدو وإحداث الثغرات في القوة الدفاعية للبيزنطيين وعندئذ دفع السلطان بجنوده من الإنكشارية ولم يكونوا قد اشتركوا في القتال قبل ذلك، فتقدموا في وادي ليكو سكانهم أسود متوحشة وهم يصيحون ويكبرون.

ولما اقتربوا من الأسوار الداخلية واخترقوها وعندئذ تمكن الجنود الإنكشارية من إنزال الإعلام العثمانية مكانها كدليل على انتصار العثمانية على البيزنطية.

وفي هذه المعركة الأخيرة من الحرب سقط جون جستنياني جريحاً ولم تقم له بعدها قائمة.

كما مات في هذه المعركة الإمبراطور البيزنطي آخر الأباطرة البيزنطيين.

لقد قتل في الحصار أربعون ألف مسيحي وأسر خمسون ألف آخرين. ثم أخذت أطفالهم ليتعلموا اللغة التركية والدين الإسلامي.

كما ضمت النساء إلى حريم السلطان وحريم تابعيه وهرب الكثيرون إلى كنيسة أيا صوفيا وإلى غيرها من الكنائس يحتمون بها.

وهكذا سقطت المدينة في يد العثمانيين وتحقق النصر للسلطان العثماني محمد الثاني، ودخل السلطان المدينة من باب القديس رومانوس يمتطى صهوة جواده وحوله وزراءة والقادة والجنود ودخل الكنيسة. وعند المذبح قابله رجال الكنيسة فأحسن استقبالهم وطمأنهم وأكد حمايته لهم. وطلب منهم الذهب إلى بيوتهم آمنين مطمئنين لا يخشون أحداً.

ثم أمر الإمبراطور بجولة في المدينة وقد بهره جمالها ورونقها ثم بدأ في إذاعة البشائر إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي بهذ الفتح العظيم.

فلما وصلت أخبار الفتح إلى القاهرة أقاموا الأفراح والزينات وعمت البهجة والنفوس بهذا الإنتصار الإسلامي الذي حققه العثمانيون.

وبالغ المؤرخون الأوربيون في وصف الأعمال الوحشية التي قام بها العثمانيون ولكن شهد أحد الرهبان الذين عاصروا هذه الأحداث فقال(إن اتباع محمد ما كانوا يعاملون المدينة. مثلما عاملها جنود المسيح، ثم نظمت الحكومة الجديدة اللاتينية أعمال السلب والنهب وقسمت الإمبراطورية بين اللاتين وفرضت الكثلكة بالقوة على اتباع المذهب (الأرثوذكسي) وهو يقصد احتلال الأوربيون الغربيون لبيزنطية في عهود سابقة وفرضوا المذهب الكاثوليك على الشعب الأرثوذكسي قهراً لا اختياراً، بينما ترك العثمانيون الحرية الدينية .

أوربا بعد سقوط القسطنطينية

فوجئت أوربا المسيحية بسقوط بيزنطية معقل المسيحية في يد العثمانيين، ولم يكن في وسع الدول الأوروبية أن تفعل أي شيء إزاء ما حدث، وهي قد حاولت بالفعل ولكن محاولاتها لم تكن على المستوى المناسب.

كما أن اختلاف المذاهب بين الكاثوليك في الغرب، وأرثوذكسي في الشرق وكل منهما يرى في الآخر إنه على باطل.

ثم إن التجارب أثبتت أن العداء بين الطرفين أكدته الحوادث. وذلك حينما حاول الكاثوليك فرص المذهب الكاثوليكي قهراً على شعب بيزنطة الأرثوذكسي، حتى أنه حينما حاول الإمبراطور دمج المذهبين معاً لأسباب سياسية رفض شعب بيزنطة ذلك رفضاً قاطعاً لا رجوع فيه مهما كانت الأحوال.

كما حاول الباب بيوس الثاني دفع السلطان العثماني إلى اعتناق المسيحية. وكان البابا ساذجاً إلى درجة أنه أعتقد أنه يمكنه تحويل السلطان من عقيدة التوحيد المحمدية إلى العقيدة المسيحية بمجرد دعوة السلطان إلى ذلك.

ولقد قامت الجمهورية الإيطالية بتوطيد علاقتها بالدولة العثمانية بسبب المصالح التجارية القائمة بينهما. ولم يلبث أن مات بابا روما ومات معه مشروع الحملة الصليبية.

ولما عقد الأوربيون اتفاق فيما بينهم في عام ١٤٥٤/٨٥٩ خرجت البندقية عن هذا الاتفاق وأقامت علاقات صداقة مع الأتراك لرعاية مصالحها الإقتصادية.

جهود السلطان محمد الحربية في أوربا بعد فتح القسطنطينية

على الرغم من أن المجر تعد من أقوى الدول الأوروبية المسيحية، حتى أن ملوك المجر أعتبروا أنفسهم حماة المسيحية. إلا أن المجر شغلتها أمور دينية مثل تحويل الصرب إلى الكاثوليك ، كما أن الإمبراطور المجرى لوى لم يمد يد العون إلى بيزنطية في حروبها مع العثمانيين لاختلاف المذهب. كما تنازعت المجر والبندقية على توسيع النفوذ على ساحل الادرياتي.

كما شغلت المجر في نزاع مع العثمانيين، ولما لم تجد لديها القوة لمواجهة العثمانيين، عقدت المجر اتفاقاً مع فرنسا وألمانيا وبتأييد من البابوية لمواجهة الخطر العثماني ولكن هذا الحلف هزم أمام العثمانيين في موقعة نيكوبوليس عام ١٣٩٦/٧٩٩م وفي هذه الموقعة أعطى العثمانيون درساً قاسيا لدول الحلف على ألا يعودوا إلى محاربة العثمانيين، فقد فقدوا زهرة شبابهم بعد هذه الموقعة وهرب الأمير المجري سجمسند بعد أن كاد يقع في أسر الجنود العثمانيين، لولا معاونة البنادقة له على الهرب ولكن الظروف ساعدت هذا الأمير ليرتقى عرش ألمانيا في عام ١٤١١/٨١٤ وأصبحت المجر وألمانيا مملكة واحدة. ولكن نتج عن ذلك الاتحاد نزاعاً بين المجر والبندقية وفقدت المجر مقاطعة دالماشيا.

ثم انضمت بوهيميا وصار اتحاداً ثلاثياً يضم المجر وألمانيا وبوهيميا وقد تمكن سجسمند من تقوية حدود المجر مع جيرانها العثمانيين وحصة مدينة بغداد عند ملتقى الدانوب

بالسافا حصناً منيعاً لا يقاوم. ونظم الجيش المجري وأعطى عناية للأسطول المجري الذي يعمل في نهر الدانوب ويحمى الحدود الجنوبية للدولة ولذلك فقد تجمع حوله النبلاء وخضعوا لقيادته.

كما هاجر إلى المجر جماعات من الصرب خدموا في جيش المجر، وبذلك تمكنت المجر من مواجهة الخطر العثماني.

حتى أن الحرب صارت سجالاً بين المجر والعثمانيين في سمندريا وتمكنت المجر من تخليص الصرب من الحكم العثماني وعلى الرغم من قيام معاهدة صلح بين المجر والعثمانيين منذ عهد السلطان مراد الثاني فإن المجر تحت زعامة هونيادى وفي عهد فلاديسلاف ملك المجر، نقضت المجر، المعاهدة المعقودة مع العثمانيين بإصدار من ملك المجر وبتشجيع من البابا الذي أعفى الملك من إتفاقه مع العثمانيين، مما أضطر السلطان العثماني إلى معادوة الحرب ضد المجر في موقعة ورنه التي قتل فيها الملك المجري وحملت رأسه على رمح.

ثم حارب العثمانيون المجريين في ١٤٨٨/٤٩٤ في موقعة قوصوع وهزمت المجر، ولم تجرؤ المجر على مواجهة العثمانيين بعد ذلك حتى عهد محمد الفاتح فوقع الطرفان المجر والعثمانيون عقد هدنة بينهما.

على أنه بعد سقوط القسطنطينية لم تكن المجر في موقف يسمح لها بالدخول في حرب مع العثمانيين، وهذا ما دعاهم إلى قبول عقد هدنة مع العثمانيين.

إلا أن السلطان محمد الثاني لم يكن لينتظر المجريين حتى يكونوا هم البادئين بالحرب، فعزم على مفاجأتهم قبل أن يفاجئوه هم.

في عام ١٤٥٦/٨٦١م بدأ العثمانيون بالهجوم على بلغراد بقوة كبيرة ومدفعية قوية، وبلغراد في في ذلك الوقت هي مفتاح المجر، ووقف الزعيم المجري يدافع عن بلغراد بكل قوته وبصبر وحماسة دفاعاً عن أرض بلاده، ووقفت كل أوربا خلفه تؤيده وتناصره ضد العثمانيين، لأن أوربا رأت أن سقوط بلغراد معناه سقوط وسط أوربا جمعية في يد

العثمانيين، لذا أسرع لنجدة المجر ستون ألف صليبي يقودهم الراهب كاستران. وناداهم البابا فلبوا النداء، فقد تغيرت أوربا والهبت مشاعرها سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين، فأخذوا يتأهبون للدفاع عن بلغراد قبل فوات الأوان.

لقد أجمع الغرب المسيحي على الوقوف خلف بلغراد صفاً واحداً، وحارب العثمانيون في بلغراد على الرغم من بعد المسافة بينهما وبين بلادهم، فالعثمانيون يحاربون في بلاد يتربص أهلها بالعثمانيين، وخطوط المواصلات بعيدة. ولذا لم يتمكن الأسطول العثماني من مقاومة الأسطول المجري وأنهزم أمامه وأضطر إلى الإنسحاب من بلغراد بعد تمكنهم من الدخول إليها بفضل الجنود الإنكشارية إلا أن السلطان على الرغم من الهزيمة فإنه عمل على الإنسحاب المنظم الذي لا يعطى فرصة للعدو للتمكن منه، حتى أنه لم يتوان عن إعادة تنظيم قواته بسرعة، كما أن هو نيادى زعيم المجر مات بعد أيام من المعركة، وكذلك مات كابسترانو زعيم المسيحين، الذي حضر لنجدة المجر.

ولكن هذه المقاومة المجرية العنيفة وإن جلت الزحف العثماني على تلك البلاد إلا أن العثمانيين وأصلوا مشاريعهم في فتوحات مستمرة في أنحاء أوربا.

ولما صار ماتياس كورفينوس ملكا على المجر بمجهود من كبار رجال المجر الذين رأوا فيه صورة لأبيه هونيادى الذي أخلص في مقاومة العثمانيين. وقدم حياته فداء للشعب المجري، بذل مايتاس جهوده لحركة إصلاح داخلية.

أما العثمانيون فقد واصلوا فتوحاتهم ودخلوا البوسنة وثبتوا أقدامهم فيها، ورأى ماتياس أن يستنجد بالباب، والبندقية ثم عرضت فرنسا تكوين جبهة متحدة ضد العثمانيين إلا أن كورفينوس رفض الانضام لهذا الحلف لأنه رأى فيه أن المجر ستتحمل وحدها الحرب ضد العثمانيين.

كما أن ماتياس الملك المجري أعطى اهتمامه للداخل فعم على محاربة حركة المعارضة في بوهيما.

أما البوسنة فقد قامت فيها المنازعات على العرش وقامت الحرب الأهلية،وتدخل البابا لإصلاح الأحوال الداخلية وأدرك السلطان العثماني ما يبيته ملك الصرب من عدم دفع الجزية، فأرسل في عام ١٤٦٣/٨٦٨ جيشاً كبيراً فتقدم ملك البوسنة يعرض طلباً للهدنة مدتها خمسة عشر عاماً. فقبل السلطان العرض.

ثم فاجأ البوسنة بالهجوم عليها واستولى عليها عنوة كما أستولى العثمانيون على الهرسك بعد ما استولوا على البوسنة. وبعد استيلاء العثمانيين على الهرسك دخلت البوسنة في الإسلام. ومنحوا سلطة الحكم للبلاد يحكمونها كأقطاعات على طريقة الحكم في العصور الوسطى.

وفي أوائل القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي تمكن السلطان محمد الثاني من بسط سلطانه على البانيا بعد صراع ضد الألبان.

وبعد أن أنكمشت مدينة البندقية وأضمحلت استولى العثمانيون على ممتلكات البندقية في السواحل الألبانية.

السلطان محمد الثاني وفتوحاته في آسيا

تمكن السلطان محمد الفاتح من الاستيلاء على مدن سينوب وطربزون، ولم ينجح الإمبراطور الإغريقي الذي حكم طربزون وما حولها في الفكاك من قبضة الفاتح حين حاول تقوية مركزه بعقد اتفاق مع أوزون حسن الذي بسط سلطانه على أجزاء من أرمينيا والعراق وفارس حيث أن أوزون حسن نفسه أنسحب من آسيا الصغرى، عندما علم بقدوم الفاتح إليها.

وفي عام ١٤٦١/٨٦٦ م تم الفتح العثماني لتلك المدن. فأنتهت دولة الأغريق من آسيا الصغرى وصار الأناضول تركيا إسلاميا، وأصبح العثمانيون يسيطرون على بحار مرمرة والأرخبيل والأسود سيطرة تلمة، ثم فتح الصدر الأعظم بعد ذلك بلاد القرن.

وفي عام ١٤٧١/٧٨٦م سقطت إمارة قرمان في أيدي العثمانيين بعد موت أمير البلاد الذي ترك سبعة أبناء تصارعوا على عرش البلاد فنحاهم العثمانيون بعيداً، وتملكوا هم البلاد. وهكذا اختفت فلول النظام السلجوقي من بلاد الأناضول نهائياً.

ولما حاول أورون حسن العودة إلى آسيا الصغرى، وتحالف مع البندقية ورودس ، باءت محاولاته في النهاية بالفشل وأنسحب بعيداً من الحدود الشرقية للدولة العثمانية، وعاد لهذه الحدود استقرارها.

على أن سلطان العثمانيين سوف يمتد بعد ذلك إلى أبعد من ذلك كثيراً، وسيقوم بتعديل تلك الحدود، خلفاء السلطان محمد الفاتح.

السلطان محمد الفاتح في أوربا ثانية

حاول السلطان العثماني محمد الفاتح العمل على تكوين علاقات حسنه مع الجنويين والبندقيين، وذلك في أثناء هجومه على القسطنطينية، ولكن ما أن تم له فتحها والإستيلاء عليها، حتى رأى أن يفرض على غلطة، وهي مدينة تابعة لجنوة، سلطانة مما ضايق الجنوينه وتوترت العلاقات بينهما.

ثم رأى السلطان أن يستولي على مدينة كافا وهي مدينة غنية وقوية حتى أطلقوا عليها أسم القسطنطينية الصغيرة، وفعلا هاجم العثمانيون كافا وبعد أربعة أيام سلمت المدينة وجمع السلطان ألف أوربعمائه من خبرة أبناء نبلاء كافة ليخدموا في صفوف الإنكشارية. وأستولى العثمانيون بعد ذلك على جميع شبه جزيرة القرم، وصار خانات التتار يتبعون العثمانيين نحو ثلاثة قرون.

ثم اتجه السلطان بعد ذلك إلى جنوه تلك التي لم تقف على الحياد أثناء معارك القسطنطينية فتقدم العثمانيون وأتجهوا إلى ممتلكات جنوة واستلوا على جزر بحر الأرخبيل واستولوا على أيبويبا، ولبيسوس ولمنوس وسلطالونيا وبعض جزر أخرى.

وفي عام ١٤٧٧/٨٨٢ م أرسل السلطان محمد جيشاً كبيراً هاجم جنوة نفسها واخترق حصونها وجمع من الغنائم والإسلاب الشيء الكثير.

وعند ذلك أسرعت البندقية وعقدت صلحاً مع العثمانيين، تعهدت فيه بمده بمائه سفينة في حالة تعرض دولة أخرى لمهاجمته، وقبل السلطان هذا العرض على أن يمدها هو بالمثل بمائة ألف جندي في حالة تعرضها للخطر من دولة أخرى.

ثم أتجه السلطان لفتح جزيرة رودس تمهيداً للاستيلاء على إيطاليا. وكان يسيطر عليها فرسان القديس يوحنا منذ القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي ووطدوا أقدامهم فيها.

وفي عام ١٤٨٠/٨٨٥ بعث السلطان محمد قائده مسيح باشا على رأس قوة كبيرة ومائة وثمانية سفينة وقام العثمانيون بالنزول في الجزيرة واستولوا على بعض الأماكن وحاصروا المدينة، ولما أوشكت على السقوط، أعلن مسيح باشا أن جميع ما يستولى عليه ملك للسلطان وحده. وعندئذ غضب الجنود وتراخت معنوياتهم ولم يواصلوا الهجوم لاقتحام الأسوار. فانتهز المدافعون الفرصة وهاجموا العثمانيين وردوهم على أعقابهم ، فاضطر مسيح باشا إلى رفع الحصار عنها وبذلك أنقذت رودس.

وفي عام ١٤٨٠/٨٨٥ اتجه العثمانيون إلى إيطاليا ونزلوا في شاطئ أبوليا وأتجهوا إلى تارنتوا وهي مفتاح جنوب إيطاليا، وسقطت المدينة في ايدي العثمانيين.

ولما مات السلطان محمد في عام ١٤٨١/٨٨٦ م زال الخطر العثماني عن إيطاليا بعد انسحاب العثمانيين منها.

السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦-٩١٧/١٤٨١/١٥١١)

تولى عرش السلذنة بايزيد الثاني، العد مناوشات من الجنود الإنكشارية ضد الصدر الأعظم الذي كتم خبر وفاة السلطان محمد الفاتح ليعطى الفرصة لتولى جم الأخ الأصغر لبايزيد العرش، وفشلت الخطة بعدما تسربت إلى الخارج وقتل الوزير غدراً.

وحاول جم بن محمد الفاتح الاستقلال بأقليم بروسه الذي يحكمه حينذاك إلا أن بايزيد رفض هذا العرض من أخيه جم وهاجمه وهزمه، وألتجأ جم إلى القوى الخارجية. ولكن الأمور لم تأت في صالحه وأنتهت بموته غيلة.

اهتم بايزيد بالشؤون الداخلية للدولة فأنشأ المباني الفخمة وأنشأ شبكة من الطرق والجسور، وقام بأعمال الصيانة للمنشآت القائمة قبلها، واستعان في ذلك بالعمال من بلاد الروم، والبلغار. كما شيد مسجداً يحمل إسمه في العاصمة استانبول.

وبالنسبة للحدود والشمالية فقد حاول العثمانيون التوسع شمالاً وشنوا الحملات على ترانسلفانيا. ولما لم يوفقوا في حملاتهم هذه اتجهوا إلى البوسنة فأكملوا الاستيلاء عليها جميعها. كما أوقفوا الحملات البولندية لفتح البغدان.

وفي عام ٩٠٥/١٤٩٩م هاجم العثمانيون البنادقة ثم عقد صلح بينهما في ٩٠٩/١٥٠٣م، بعد استيلاء بايزيد الثاني على ناو باقتوس ومسينا، وأتجه بعد ذلك إلى حدود الدولة الشرقية لمواجهة الشاه اسماعيل الذي حاول التدخل في شؤون الدولة العثمانية لحماية جماعات الشيعة المنتشرين في آسيا الصغرى.

ثم دب نزاع بين أبناء بايزيد الثاني بسبب رغبة بايزيد في اختيار ولده الصغير أحمد لعرش السلطنة، فرفض ذلك الأبن الأصغر سليم لطموحاته العسكرية. وقد أيدته القوى العسكرية. فالإنكشارية عاضدت سليم على أخيه أحمد. ووقع خلاف بين سليمان وأبيه وتقاتل الولد مع أبيه وتغلب الأب على أبنه.

ولما حاول أحمد ارتقاء العرش في حياة أبيه صدته الإنكشارية. وأنتهى الأمر بتولي سليم عرش السلطنة في عام ١٥١١/٩١٧ وتنازل السلطان بايزيد على العرش مكرها وتولى سليم عرش السلطنة.

الفصل الثالث:

اتساع الدولة العثمانية في آسيا أفريقيا

في عام ١٥٤١/٩٢٠م ثم تقدم السلطان سليم بجيشه إلى العاصمة تبريز ، وهنا بدأت فكرة التوسع في قارة آسيا لدى العثمانيين.

ولكن مصر المملوكية قائم سلطانهافي بلاد الشام وقد امتد سلطانهم إلى الشمال الشرقي وهي في ذلك الوقت تعد القوى الثانية الكبرى، على أن الصلة بين المماليك في مصر والعثمانيين منذ عهد السلطان محمد الفاتح.

وقد بدأت حركة التوسع في عهد السلطان بايزيد الثاني حيث لم تكن لديه رغبة في التوسع العسكري بنفس حماس من سبقوه من السلاطين العثمانيين فأخذ المماليك يستفيدون من سياسة بايزيد الهادئة وأمدوا معهم نفوذهم في أرمينية الصغرى وقلقيلية.

وفي عهد السلطان سليمان، وقد تقدم إلى منطقة آسيا وهاجم شاه إسماعيل واستولى على إمارة علاء الدولة التي كان السلطان محمد الثاني قد أعطاها له قبل ذلك.

وقد حدث خلاف بين شاه إسماعيل وعلاء الدولة فلما عاد السلطان العثماني من حملة ضد شاه إسماعيل أمر بمعاقبة علاء الدولة، وأخذ منه إمارته ومنحها لأبن أخيه علي بك، ثم ضمت في /عهد السلطان سليمان إلى الدولة العثمانية.

وفي مصر حاول السلطان التحالف مع شاه اسماعيل ليواجهها معاً العثمانيين . ثم حاول السلطان الغورى المتقدم في السن التقرب إلى العثمانيين فلم يستجيب السلطان سليم لهذه الخطوة من جانب الغورى.

وفي جمادى الأخرى من عام ١٥١٥/٩٢١م بعث السلطان سليم إلى السلطان الغورى بمصر رؤس على دولات وأبنه ووزيره، فتضايق السلطان الغورى وقال أنها ليست رؤس أعداء الإسلام،فلم يبعث لي بها. ثم أمر بدفنها في إحدى الأماكن بمصر.

وهكذا أخرجت بعض البلاد التابعة للسلطان الغورى من يده، بعد أن استولى عليها العثمانيون، ولم يستطيع الغورى أن يفعل شيئاً إزاء ما حدث. وقد فهم المصريون أن السلطان العثماني يتحرش بسلطان مصر.

وطلب الأمراء المماليك من السلطان الغوري التحرك بعد أن قام السلطان سليم العثماني بالاستيلاء على غالب البلاد الحلبية في الشام التابعة لمصر. وخطب له فيها وضربت السكة باسمه، كما أقام أبراجا وحصون، ولكن السلطان لم يتحرك إزاء تلك الأحداث. ولما بعث نائب حلب إلى العثمانيين بسبب ما أخذوه من ممتلكات مصر في الشام قال أنه أخذها بالسيف ولا يردها إلا بالسيف.

ولما حاول السلطان الغورى استرضاء مماليكه أغدق عليهم المال والسلاح والغذاء.

وعادة ما كان يخرج الجيش في فترة الصيف حين تضعف حرارة الشمس. إلا أن السلطان الغوري خرج عن هذه القاعدة حين خرج بجيشه في شهر ربيع الآخر من عام ١٥١٦/٩٢٢م في فترة حرارة الشمس مما أرهق جنوده. ولم يرجع الغورى عن هذا الفعل الخطأ لأنه لم يكن يأخذ عادة إلا برأيه هو دون غيره من ذوى الخبرة من رجال دولته.

معركة مرج دابق

في ١٥ رجب عام ١٥١٦/٩٢٢ خرج السلطان الغورى من مصر على رأس الجيش ووصل إلى غزة وأقام بها ثلاثة أيام، فتقدمت إليه بعض الأهالي بالشكوى من نائب غزة فبعث إليه فلما حضر إلى السلطان عنفه على فعله توظلمه وزجره غاية الزجر ثم أعاده إلى مكانه بعد أن كان قد عزله.

ثم وردت مكاتبة من نائب الشام سيباى يذكر فيها أن علم أن السلطان الغوري يريد السفر إلى قتال أبن عثمان وأن المملوك يقوم بهذا الأمر، ويكون السلطان مقيماً بمصر ويبعث بالعسكر، وأورى سيباى نائب الشام خبراً خطيراً مفاده أن خاير بك ليس

مخلصاً لسلطان وأنه على صلة بالسلطان العثماني ، ويكاتبه ليطلعه على أسرار الدولة المصرية في كل وقت من النهار.

وقد أثبتت الأحداث صدق سيباى وإخلاصه فيما بلغه من أخبار عن خاير بك ، إلا أن السلطان الغورى لم يستجب لأقوال سيباى، وأهمل عمل التحريات اللازمة بشأنها للتـأكد من صحتها من عدمه.

ورد السلطان على سبياى نائب الشام بقوله ها نحن قد جئناهم بأنفسنا، ثم أمر بالرحيل بالجيوش والعساكر[1] وذلك لأن السلطان لم يكن يحسب لخاير بك نائب حلب حساباً لما يعلم من جنبه وعدم شجاعته فأخذه من لم يكترث به، بينما كان سيباى من مماليك السلطان قايتباى، وكان رجلا شهماً مخلصاً، ولكن الغورى غفل عنت تبع ما يصله من أخبار رجال دولته، فلم يتحر صحة الخبر، ولم يجعل له عيون تبلغه بالأخبار الصحيحة أو من الإشاعات التي يطلقها العدو.

ولما تولى السلطان سليم الأول العثماني واستقل بحكم الدولة العثمانية ألتجأ أحد أخوته إلى السلطان الغورى بمصر واستجأره فقبل إجارته، ثم إن السلطان العثماني بعث إلى السلطان الغورى يطلب رد أخاه غليه فأبى الغورى ذلك.

ومن هنا بدأت العداوة بين الغورى وسليم الأول وكذلك من أسباب العداوة بينهما أن السلطان سليم حين قام بغزو الفرس في عهد شاه اسماعيل وعاد بجنوده إلى البيرة، لم يرحب نائب البيرة علاء الدولة – وهو يتبع مصر – بالعثمانيين ولم يسمح لأهالى

---

[1] يذكر أحمد بن زنبل الرماليى في كتابه تاريخا لسلطان سليم خان إن السلطان الغورى أتخذ لنفسه رمالاً (منجماً يضرب الرمل)، فكان كل حين يقول له السلطان، أنظر إلى من يلى الحكم بعدى فيقول حرف السين، فكان السلطان يعتقد إنه سيباى وكان كلما كتب سيباى للسلطان بما يفعله خاير بك نائب حلب من المكاتبات للسلطان سليم بأنه معه وأنه ملاحى على إبداء جنسه ويحرضه على المجئ إلى أخذ مصر من الجراكسة والسلطان الغورى لا يقبل من سيباى نصيحة.

مرعش ببيع أي شيء لعساكر السلطان العثماني، فمات بسبب ذلك الحصار ضد العثمانيين أكثر الدواب والناس. وكان ما كان من الحروب بسبب ذلك.

ولما وردت الأخبار للسلطان العثماني بما حدث لجيوشه من نائب البيرة، أراد أن يبعث بحملة لتأديب هذا التأديب إلا أن مستشارية نصحوه بأن يكتب إلى الغورى أولاً.

فبعث السلطان سليم إلى السلطان الغورى يبلغه ما حدث من أمر علاء الدين، فرد عليه الغورى بقوله أن علاء الدين عاص أمرى فإن قدرت عليه فأقتله وقدم الهدايا إلى مبعوثى السلطان سليم.

ثم أن السلطان الغورى بعث إلى علاء الدين سرا يبلغه بتأييده لما فعل مع العثمانيين ويحرضه على قتال العثمانيين. وبذلك قوى علاء الدين على قتال العثمانيين.

ولما عاد مبعوث السلطان العثماني إليه وعرف جواب الغورى إليه أدرك بفراسته أنها خديعة من السلطان الغورى له، فأضمر في نفسه شيء.

ثم أن السلطان الغورى ظل ينتقل في بلاد الشام فمن غزة إلى دمشق فتقابل مع الأمير سيباى نائب الشام ثم إلى حماه فلاقاه فيها نائبها جان بردى الغزالي.

ثم وصل السلطان الغورى إلى حلب، وفي حلب حضر ممثل السلطان سليم العثماني وهما ركن الدين قاض عسكر ابن عثمان، وقراجا باشا أحد أمراء السلطان العثماني فنزلا حلب وعاتبهما السلطان الغورى في أفعال السلطان سليم وأخذه بلاد على دولات. فرد عليه المبعوثان بانهما حضرا للصلح وأنهما مفوضان من قبل السلطان العثماني بذلك.

ثم تبين بعد ذلك أن هذه خدعة أراد بها العثمانيون إنصراف الغورى عن التجهيز للحرب ثم يفاجئوه بها.

ثم إن المبعوثين طلباً من السلطان الغورى بأمر من السلطان العثماني سكرا وحلوى فصدقه السلطان الغورى وبعث إليه بمائة قنطار سكر وحلوى في علب كبيرة.

كما كتب السلطان سليم إلى السلطان الغورى مع هذين المبعوثين يطلب من السلطان إلا بتدخل في صلح بينه وبين الشاه لأن السلطان العثماني قرر أن يحارب إسماعيل شاه

وينفيه من وجه الأرض، وأظهر السلطان سليم أنه على القيسارية ليحارب الصفوى، وهو بذلك يعمل على خداع الغورى.

ثم أن السلطان الغورى بعث بهدايا إلى السلطان العثماني وذلك رداً على هدايا السلطان العثماني.

ثم أرسل السلطان الغورى الأمير مغلباى يعرض الصلح بينهما، وأن الأمراء والعسكر في إنتظار الرد.

ثم وضحت صحة نوايا العثمانيين تجاه مصر عندما وردت الأخبار إلى السلطان الغورى في حلب بأن سليم شاه قبض على قاصد السلطان الذي أرسله الغورى وهو الأمير مغلباى أحد الدوادارية ووضعه في الحديد.

وكان السلطان الغورى حيث أطلق مبعوثى ابن عثمان قبل أن يحضر مغلباى ويطلع منه على أحوال ابن عثمان.

وفي عنتاب علم الأمير كرتباى أن السلطان العثماني رفض الصلح وقبض على الأمير مغلباى، ووضعه في السجن وكاد ينفذ فيه حكم الشنق لولا تدخل بعض وزرائه.

وعندئذ لم يكمل كرتباى رحلته وعاد إلى حلب وأخبر السلطان الغورى بما حدث وأن الجنود العثمانيين قد وصلت إلى عنتاب وملكت قلعة ملطية وبهنسا وكركر، وغير ذلك من القلاع.

وعندئذ نادى السلطان الغورى بالرحيل، من حلب والنزول على جيلان لقتال ابن عثمان، ولما تقابل الأمير مغلباى مع السلطان الغورى، أخبره أن ابن عثمان رفض الصلح وقال له قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق.

وفي رجب عام ١٥١٦/٩٢٢م خرج السلطان الغورى من حلب. متجهاً إلى جيلان، ويرافقه أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة ونائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب خرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونفوط.

وفي ٢١ رجب ١٥١٦/٩٢٢ وصل السلطان من جيلان إلى مرج دابق فأقام إلى يوم الآخر ٢٥ رجب ١٥١٦/٩٢٢م.

وفي مرج دابق فاجأته الجنود العثمانية، فصلى السلطان صلاة الصبح ثم توجه إلى زغزغين وتل الفار، فركب وهو بتخفيفة صغيرة وملوطه وعلى كتفه طبر[٢] وصار يرتب العسكر بنفسه وأمير المؤمنين على الميمنة ويلبس مثل ملابس السلطان وعلى رأسه السنجق الخليفتي[٣] وجماعة الصوفية والقضاة الأربعة وتمر الزدكاش أحد المتقدمين.

وكان على ميمنة العسكر الأمير سيباى نائب الشام وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب، وأول من برز إلى القتال في الميدان الأتابكى سودون العجمي وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبع سناجق، وأخذوا المكاحل التي كانت على العجل ورماة البندق، فهم السلطان سليم بالهروب أو بطلب الأمان، وقد قتل من جنوده فوق العشرة آلاف.

وفجأة تغير الموقف لغير صالح السلطان الغورى وذلك حين بلغ المماليك القرانصة إشاعة هي أن السلطان قال للماليك الجلبان لا تقاتلوا أبداً وخلوا المماليك القرانصة يقاتلون وحدهم.

فلما بلغ ذلك إلى إسماعيل المماليك القرانصة ثنوا عزمهم عن القتال، فبينما هم على ذلك وإذا بالأتابك سودون العجمي قتل في المعركة وقتل سبياى نائب الشام فأنهزم في الميمنة من العسكر جانب كبير ثم أن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب، فكسر الميسرة.

وكسر الأمير قانصوه بن سلطان جركس وقيل قتل، وقيل أن خاير بك كان على علاقة بالسلطان سليم ومتواطئاً ضد السلطان الغورى، وقد ظهر صحة ذلك فهو أول من أنهزم من الجنود المصرية.

---

[٢] **الطبر: (السلاح).**

[٣] **السنجق :راية صغيرة تربط بطرف الرمح لونها أصفر، وجمعها سناجق.**

وظل السلطان الغورى واقفاً وحده تحت الراية السلطانية في قلة من جنوده وصار يدعو جنوده إلى القتال وهم لا يستجيبون وتسللوا منسحبين ثم تقدم الأمير تمر الزردكاش إلى السلطان ودعاه إلى النجاه بنفسه باللجوء إلى حلب.

ثم زحف السلطان سليم بجيشه ودخل وطاق السلطان الغورى، وفيه من الأرزاق التي حوله، وجلس في خيامه، وفي المدورة.

ثم تحول السلطان سليم من مرج دابق واتجه إلى حلب، واستولى عليها بغير مقاومة. ثم جلس في المكان الذي كان يجلس فيه السلطان الغورى.

ثم قدم إلى السلطان سليم، أمير المؤمنين، المتوكل على الله، والقضاة الثلاثة قاضى القضاة محي الدين المالكي ، وقاض القضاة شهاب الدين الفتوحي الحنبلي. وأما قاض القضاة محمود بن الشحته فقد أنسحب مع جنوده من المماليك إلى الشام.

وسأل السلطان العثماني أمير المؤمنين حين قدم إليه. ورحب به وأجلسه بجواره وسأله (أصلكم من أين؟ فقال له من بغداد، فقال له ابن عثمان: نعيدكم إلى بغداد، كما كنتم ثم خلع عليه السلطان خلع سنيه من ملابسه ومنحه بعض المال ورده إلى حلب متحفظاً عليه[٤].

أما القضاة فقد قال لهم السلطان سليم (أنتم تأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية وتسعون بالمال حتى تتولوا القضاء، وما منكم من أحد يرشد إلى الخير، لأنكم لم تمنعوا سلطانكم عن المظالم التي كان يفعلها بالناس، وأنتم ترون ذلك منه ولا تنكرونه)[٥].

وبعد أن استولى السلطان سليم على مدينة حلب صعد إلى القلعة فلما أطلعوه على ما فيها وجد من الأموال مائة ألف ألف دينار والكنابيس الزركس والرقاب والطبر[٦] والسروج

---

[٤] ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٩، ص ١٠٣١ .

[٥] نفس المصدر ص ١٠٣٢ .

[٦] الطبر: نوع من السلاح والكنابيس: ضمار لتغطية الوجه.

الذهب وطبول البازات واللجم المرصعة والفصوص المثمنة والبركستوانات الفولاذ الملون والسيوف المسفطة بالذهب الخود الفاخرة، وأنواع كثيرة من الأسلحة.

وبعد ذلك استولى السلطان سليم على ثلاثة عشرة قلعة مع ما فيها من الأموال والأسلحة مما لا حصر لها هذا غير الخيول والبغال والجمال والخيام.

ثم صلى السلطان سليم بجامع حلب ودعى له باسمه، على المنابر.

أما السلطان خاير بك نائب حلب وهو من خان السلطان الغورى، فهو أول من انسحب من المعركة وأشاع الهزيمة من الجنود المصريين.

فلما استقر للسلطان سليم الأمر استدعى خاير بك فلما حضر خلع عليه وضمه إلى جملة أمرائه ولبس زي التراكمة، العمامة المدورة والدلامة وقص ذقنه، فأطلق عليه السلطان سليم (خاين بك) لخيانته، للسلطان الغورى، وعند ذلك انسحب أتباع خاير بك وبقي خاير بك ضمن حاشية السلطان سليم.

وبعد أن أستقرت الأحوال للسلطان العثماني في بلاد الشام وصار له الحكم من الشام إلى الفرات وملك قلاعها وأعمالها وملك ثلاث عشرة قلعة بالأمان من غير حرب ولا قتال. كما ملك عدة قلاع من شاه إسماعيل الصفوى. ثم عزم السلطان سليم على دخول مصر. ووصل إلى غزة.

وفي يوم الخميس ٢٢ ذي الحجة عام ١٥١٦/٩٢٢ خرج من غزة وأتجه إلى العريش، ثم إلى بلبيس ثم العكرشة ثم وصولا إلى الخانكاه ومن هناك اتجه العثمانيون إلى بركة الحاج.

معركة الريدانية

توجه السلطان طومان باى في ١٩ ذي الحجة من عام ١٥١٦/٩٢٢م إلى الريدانية، وأقام بها الوطاق وأقام المدافع والمكاحل وصف هناك طوارق وحفز خندق من الجبل الأحمر إلى غيط المطرية ثم جعل خلف المكاحل نحو ألف حمل جمل وعليها زكائب فيها عليق وعلى أقتابها صناجق بيض وحمر تخفق في الهواء وجمع عدة أبقار لجر العجل.

ولما نزل العثمانيون بركة الخاج، وأقاموا بها يومين، ولم يعترض لهم طوماى باى.

ثم فاجأ العثمانيون طومان باى بالهجوم عليه بجنودهم إلى الجبل الأحمر وأعلن طومان باى النفير والخروج لملاقاة العثمانيين فركب الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربياً، وركب الجنود، وأقبل جنود العثمانيين وتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية، فكانت معركة تفوق معركة مرج دابق.

وقتل كثير من جنود العثمانيين وقتل كبير وزراء السلطان العثماني لا لا باشا. ثم هجم العثمانيون على الجند المصريين من جهتين، فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر، والفرقة الأخرى جاءت للجنود المصريين عند الوطاق بالريدانية، وقذفوهم بالبندق الرصاص، وكان هجوم العثمانيين عنيفاً فأنهزم جيش طومان باى، وبقى معه قليل من الجند الرماة، والمماليك السلحدارية فلما أدرك طومان باى إلا حيلة له في مواصلة القتال، أسرع بالانسحاب من المعركة فهجم العثمانيون على الوطاق المصري واستولوا على جميع ما فيه من أقمشة وأسلحة وخيول وجمال وأبقار ومكاحل وعربات وغير ذلك.

وفي ٢٢ ذى الحجة عام ١٥١٦/٩٢٢ م دخل العثمانيون القاهرة ومعهم الخليفة العباسي أمير المؤمنين المتوكل على الله، وجماعة القضاة، وأعلن السلطان سليم للناس الأمان، والاطمئنان والبيع والشراء، وأنه قد أغلق باب الظلم وفتح باب العدل.

وخطب للسلطان سليم العثماني على منابر مصر والقاهرة وبعد أن تم الأمر للسلطان العثماني وفتح مصر والقاهرة واعتقد أن الأمر قد استقر له بها. تغيرت الأمور فجأة وعلى غير ما توقع العثمانيون.

وذلك ان السلطان نزل بالوطاق الذي أقامه في بولاق وأقام به إلى ٤ محرم من عام ١٥١٧/٩٢٣م ففوجئ السلطان العثماني في ٥ محرم وهو وطاقه في بولاق بطومان باى يهجم على الوطاق بجمال محملة بارود وقد أطلق عليها النار فاشتعلت وأشعلت النار في الوطاق وفي بعض الخيام، وقاتل طومان باى العثمانيين بالسيوف، وتعاون الأهالى مع طومان باى باستخدام المقاليع بالحجارة، واستمر القتال يوماً كاملاً من أول النهار إلى الليل، وساعد العرب في القتال ضد العثمانيين.

وفي خلال تلك المعارك التي جرت في أحياء القاهرة بين العثمانيين والمماليك، أقامت المساجد الخطبة لطوماى باى، وكانت في الأسبوع الماضي للسلطان سليم شاه.

إلا أن المعركة انتهت في ٨ محرم عام ١٥١٧/٩٢٣م بإنسحاب طومان باى متجهاً إلى بركة الجيش.

ثم رأى طومان باى أن يبعث من البهنسا التي لجأ إليها بالصعيد وأقام بها إلى السلطان العثماني يطلب الصلح، وكلف القاضي عبد السلام قاضى البهنسا بالقيام بهذه المهمة.

وفي خلال ذلك قرر السلطان سليم تعيين جماعة من أمرائه في الولايات على بعض البلاد. منهم نائب غزة وكاشف المحلة والشرقية والغربية وولى عدة كشاف في أماكن مختلفة من البلاد.

وفي ١٠ محرم نادى بالأمان بعد أن أستقر في القلعة ثم بدأ طومان بأى يعمل حصار اقتصادي على العثمانيين بالقاهرة فأمر بمنع المراكب من الدخول إلى القاهرة بالغلال.

ووصل مبعوث طومان باى إلى السلطان العثماني يقول: "إن كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة بإسمك وأكون أنا نائباً عنك بمصر، وأحمل إليك خراج مصر حسبما يقع الأتفاق عليه بيننا من المال الذي أحمله إليك في كل سنة، فأرحل عن مصر أنت وعسكرك إلى

الصالحية، وأحقن دماء المسلمين بيننا، ولا تدخل في خطيئة أهل مصر، من كبار وصغار وشيوخ ونساء. وأن كنت ما ترضى ذلك أخرد ولاقني في بر الجيزة ويعطى الله النصر لمن يشار منا"[٧] .

فلما وقف السلطان سليم شاه على مطالعة السلطان طومان باى للإتفاق على خطة صلح بين الطرفين. وافق عليها وأرسل خلف أمير المؤمنين والقضاة الأربعة، وأحضر جماعة من وزرائه، وأمر بتوجيه هذا الوفد إلى السلطان طومان باى، لتنفيذ خطة الصلح هذه. ثم قدم السلطان العثماني خلعا للقضاة وأمرهم بقوله : (أنزلوا في هذا الوقت واعملوا برقكم حتى تتوجهوا إلى، طومان باى نحو الصعيد)[٨].

ثم أن الخليفة أمتنع من التوجه إلى السلطان طومان باى وقال أنا أرسل دواداري برديك إلى طومان باى صحبة القضاة الأربعة وكان مما بعث به طومان باى إلى السلطان سليم قوله " ولا تحسب أني أرسلت لك أسألك في أمر الصلح عن عجز فإن معي ثلاثين أميراً ما بين مقدمي ألف وأربعينات وعشراوات ومعي من المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألف وما أنا بعاجز عن قتالك ولكن الصلح يصون دماء المسلمين[٩] ثم توجه القضاة الأربعة وبردبك إلى الصعيد لمقابلة طومان باى.

إلا أن خطة الصلح التي خطط لها السلطان طومان باى، لم يكتب لها النجاح، حيث أن السلطان طومان باى لم يحطط للأمر وترك الوقد العثماني بغير حراسة وهو في طريقه إليه كما أن السلطان سليم نفسه لم يفكر في مثل هذا.

---

[٧] ابن إياس، بدائع الزهور ج١٠ ص ١٠٨٨ .

[٨] ابن إياس، بدائع الزهور ج١٠ ص ١٠٨٨

[٩] نفس المصدر.

وما حدث هو أن الوفد العثماني خرج عليه وهو في طريقه إلى الصعيد لمقابلة طومان باى، جماعة من الجراكسة يمثلون[10] المعارضة ولم يصدهم طومان باى، قتلوا العثمانيين وهرب بردبك دواردار الخليفة ونجا من القتل.

كما قتل قاضي البهنسا رسول طومان باى إلى السلطان سليم وكان عائداً مع الوفد العثماني إلى طومان باى.

وبلغ الخبر السلطان سليم فتضايق للغاية واعتقد أن طومان باى يخادعه، ولذا قرر الاتجاه إلى الصعيد لمحاربته.

وفي ٦ ربيع الأول من عام ١٥١٧/٩٢٣ عبر السلطان سليم إلى شاطئ الجيزة لقتال السلطان الأشرف طومان باى الذي وصل إلى المنوات ومعه كثير من المماليك والعرب.

وتقابل الجيشان المماليك والعثمانيين على وران أو المنوات فكانت معركة فاقت معركة الريدانية.

وانهزم العثمانيون أكثر من مرة، ثم تدخل رماة البندق الرصاص فأنهزم المماليك وأنسحب طومان باى. وفي هذه المعركة والمعارك السابقة أحرز المماليك النصر على العثمانيين أكثر من مرة ولكن البندقية كان دورها حاسماً في إنهاء المعركة لصالح العثمانيين[11].

---

[10] يرجع سبب تعرض الوفد العثماني الذي توجه إلى الصعيد لعقد صلح بين المماليك والعثمانيين إلى جماعة من أمراء المماليك رفضوا عرض الصلح وصمموا على مواصلة القتال وهم الذين حرضوا على الاعتداء على الوفد العثماني لافساد خطة الصلح وضاعت الفرصة الناجحة من ايدي المماليك (ابن إياس، بدائع الزهور، ج٩، ص ١٠٩٠).

[11] ظهرت البندقية في دول الغرب إلا أن استعمالها كان شائعاً بين المغاربة أيضاً. وقد ظهر استعمال البندقية في مصر عندما أمر السلطان قايتباى باستخدامها في الجيش المملوكي، إلا أن استخدامها توقف بعد ذلك في الجيش، ثم جاء أحد المغاربة في عهد الغورى وقدم البندقية باعتبارها من الأسلحة المستحدثة، والتي شاع استخدامها بين الروم والمغاربة، ومن العجيب حقاً أن السلطان الغورى رفض استخدامها في الجيش بحجة أنها من سنة النصارى وليست من سنة المسلمين، وهنا تنبأ الرجل المغربي بهزيمة الغورى بنفس

وانسحب طومان باى من المعركة واتجهإلى قرية البوطة في أعلى تروجه، وفي تروجه تقابل طومان باى مع حسن بن مرعي وابن أخيه شكر، مشايخ البحيرة، وأخذ طومان باى عهدا على حسن بن مرعي ألا يخونه وأعطاه ابن مرعي العهد فأطمأن طومان باى واستقر بين العرب.

ولكن حسن بن مرعى لم يف بوعده للسلطان وغدر به وقبض عليه السلطان سليم وانتهى الأمر بإعدام طومان باى شنقا في ١١ ربيع الأول من عام ٩٢٣ /١٥١٧م.

ثم شرع العثمانيون قبل العودة إلى استنابول في جمع جماعة كثيرة من الحرفيين وأصحاب المهن فاجتمع بعض وزراء السلطان سليم في مدرسة السلطان الغورى وطلبوا جماعة من القضاة والشهود المباشرين وأعيان تجار المغاربة وتجار الوراقين وتجار الشرب وجماعة من عمال المتاجر والمهندسين والبنائين والنجارين والمبلطين والمرخمين، والحدادين والفعلة ثم أختاروا جماعة منهم للسفر إلى استانبول، وبعد أن كتبوا أسماءهم في قوائم كلفوهم بأحضار من يضمنهم، فأحضر كل واحد منهم ضامناً له يضمنه ثم أطلقوا سراحهم لحين تكليفهم بالسفر إلى استانبول.

وهكذا فقدت مصر خمسين حرفه توقف العمل بها في مصر وفي أواخر ربيع الأول عام ١٥١٧/٩٢٣ أمر السلطان سليم العثماني أمير المؤمنين الخليفة العباسي بالاستعداد للسفر إلى استانبول. وبسفره انتقلت الخلافة من مصر إلى استانبول.

ثم عزم السلطان العثماني على العودة إلى استنابول، بعد أن أسند إلى خاير بك منصب نائب السلطان برتبة سنجق ومعه خمسة آلاف فارس وخمسمائة من رماة البندق، وجعل خير الدين باشا، نائباً للقلعة لا يبرحها.

وهكذا تحولت مصر إلى نيابة تابعة للدولة العثمانية باستانبول.

البندقية مع أن النبي قال علموا أولادكم الرماية والبندقية من الرماية وقد أخطأ حين رفض البندقية (ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٥٥٨. الكيلاني، جمال الدين فالح، في التاريخ الاوربي الوسيط، مكتبة المصطفى، القاهرة، ٢٠١١، ص٢٣).

ظل السلطان العثماني غائباً عن عاصمة بلاده نحو ثلاثة عشر شهراً، أمتد خلالها سلطانه من مصر إلى الفرات والشام. يخطب فيها بإسمه وكذلك السكة على الذهب والفضة بإسمه وما حول العراقيين.

بعد اتساع مساحة الدولة العثمانية في ناحية الشرق ضاقت المسيحية وخاصة البابا ليو العاشر من نتائج هذه الفتوحات العثمانية على كيان الشعوب المسيحية، وأخذ يعمل على قيام حرب صليبية جديدة.

إلا أن السلطان سليم العثماني لم يلبث أن توفى بعد مرض جاءه وهو في طريق عودته من استانبول إلى أدرنه في عام ١٥٢٠/٩٢٧ وتولى مكانه على العرش السلطان سليمان الكبير.

السلطان سليمان الكبير {القانوني} (٩٢٧-١٥٢٠/٩٧٤-١٥٦٦)

عاود العثمانيون نشاطهم الحربي في الحدود الشمالية مع أوربا، وذلك بعد وفاة السلطان سليم، وتوليه أبنة السلطان سليمان الكبير،

بدأ العثمانيون في عهد سليمان الكبير يتجهون إلى الشمال فاحتلوا بلغراد في عام ١٥٢١/٩٢٨ م ثم أتجهوا بعد ذلك إلى ردوس. وفي عام ١٥٢٢/٩٢٩ حاصروا قلعتها ثم استنسلم المدافعون في أقل من شهر من الحصار وأتفق على إنسحاب جميع الفرسان مع حفظ سلامتهم وامتعتهم، وإسقاط الجزية عن أهل الجزيرة من النصارى مدة خمس سنوات. وتوطدت العلاقات بعد ذلك بين باريس واستانبول وحظيت فرنسا بمركز ممتاز بين الدول منذ ذلك الحين.

وفي عام ١٥٢٦/٩٣٣ هاجم العثمانيون المجر واحتلوا مدينة بودا.

ولما نشب قتال بين النمسا والمجر في عام ١٥٢٩/٩٣٦ حاول العثمانيون محاصرة النمسا والاستيلاء عليها وفشلوا في ذلك لقلة المؤن وتكررت المحاولة وتكرر الفشل.

وفي العام التالي أعلن السلطان العثماني استعداده للاعتراف بالأوضاع القائمة للدولتين. ويرجع ذلك لرغبته في التفرغ لحدوده الشرقية الآسيوية، حيث لم تكن الأحوال مستقر آنئذ.

السلطان سليمان في فارس

لما تولى الحكم في فارس طهما سب بن اسماعيل شاه أبي الاعتراف بالسلطان العثماني خليفة على المسلمين. فلما خرج عامل بغداد الفارسي على سلطان فارس، خليفة على المسلمين. فلما خرج عامل بغداد الفارسي على سلطان فارس، وأعلن تبعيته للعثمانيين، استعد الفرس لإرسال حمله عسكرية لإخضاعه. وعندئذ بادر العثمانيون بإعلان الحرب على فارس.

وفي عام ١٥٣٤/٩٤١ أضطر الفرس إلى الانسحاب والتراجع فأسرع السلطان العثماني بالتوجه إلى تبريز عاصمة الفرس واستولى على بغداد. ثم توجه السلطان العثماني على استانبول فوصلها في بداية عام ١٥٣٦/٩٤٣.

العثمانيون والعرب

لقب العثمانيون السلطان سليمان بالقانوني. لقدرته الفائقة على إيجاد تنظيمات مؤسسية وإدخال إضافات على ما سبق أو أوجده من سبقوه من السلاطين.

وتلك التنظيمات التي أوجدها السلطان سليمان القانوني أنقذت الإطار العام للإدارة والمجتمع في الولايات العربية في أثناء الحكم العثماني من التفكك.

ومع ذلك فإن العثمانيين لم يعملوا على تطوير تلك النظم وإنما وقفوا عندها جامدين.

ولذفك فقد تذمرت الشعوب من الأنظمة العثمانية، وتضرروا منها، خاصة وأن نظام الدولة العثمانية أخذ بالنظام الإقطاعي، وذلك بأن تعهد الدولة إلى أفراد من تلك الولايات تكلفهم بالإشراف على الأراضي المقطعة لهم وتتقاضى منهم مبالغ كبيرة كل عام وتمنحهم نسبة معينة من دخل ذلك الإقطاع للاتفاق منه على الجنود.

كما تركت الدولة للإقطاعي حرية ما يفرضه بنفسه من الضرائب على الفلاحين، دون الرجوع إلى الدولة.

وهكذا صار الفلاحون تحت رحمة الإقطاعيين. كما أن أحداً من الحكام المحليين في البلاد العربية لم يكن لديهم أدنى اهتمام في النظر إلى الأهالي وما يتحملونه من ضرائب تفوق طاقتهم في كثير من الأحيان.

وكان من نتائج عدم التعاون بين رجال الحكومة وأفراد الشعب من المشتغلين بالفلاحة أن انتشر الفساد وعمت اللامبالاة، فلحق بالدولة الضعف الذي أدى إلى تخلف الدولة عن مواجهة حركة التطور بين الدول الأوربية التي دبت في أوصالها صحوة حضارية لم تستطع الدولة العثمانية أو الولايات العربية ملاحقتها. فتقدم الأوربيون وتخلف العرب والعثمانيون.

بعد أن فتح العثمانيون الشام ومصر وبسطوا سلطانهم عليها، تحولوا إلى الحجاز، ثم اليمن، مثلما فتحوا العراق من الصفويين.

ذلك أن العثمانيين وجدوا أنه يتعين عليهم السيطرة على ولايات مصر المملوكية، حتى لا تقع تلك البلاد العربية تحت سيطرة البرتغاليين الذين كانوا يجوبون البحار في ذلك الحين.

ولذلك عمد العثمانيون إلى بناء قاعدة بحرية لهم في السويس، لعملياتهم الحربية في البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي (خليج البصرة)، تماماً مثلما حدث في العهد المملوكي.

كما فكر العثمانيون في بناء قاعدة بحرية أبعد من القاعدة البحرية في السويس تمكنهم من ملاحقة البرتقالين في المحيط الهندي وتمكنهم من السيطرة التامة على البحر الأحمر.

لذلك عمد العثمانيون إلى الاستيلاء على اليمن وعدن في عام ١٥٣٨/٩٤٥م.

وفي بداية الأمر بعث العثمانيون رسالة إلى الوالي باليمن من قبل المماليك الأتراك بمصر، أسكندر الجركسي يعلنوه بتبعيته للعثمانيين، باعتباره والياً على اليمن. فوافقهم على طلبهم له وأعلن لهم خضوعه لهم.

وفي عهد السلطان سليمان القانوني أرسل العثمانيون أسطولاً إلى اليمن مكون من ثمانين سفينة واستولوا على عدن قهراً من حاكمها عامر بن داود الظاهري ثم تبع ذلك الاستيلاء على عدة موانى يمينة أخرى ثم تحولت اليمن إلى التبعية العثمانية تماماً. على أن الأمن والاستقرار أخذ وضعه في اليمن في ذلك الحين.

العثمانيون والفرس

استطاع أوزون حسن خان التركي التغلب على قبلية قره قيولنلى التركماننية. كما استطاع أوزون حسن من مقرة في ديار بكر أن يضع أساس دولة واسعة في أرمينية، حيث ضم فارس الجزيرة الفراتية.

وفي عام ١٤٥٨/٨٦٣ حدثت مصاهرة بين أوزون حسن وحاكم طرابزون وفي عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م هاهجم أوزون حسن شرق آسيا الصغرى.

ولما فرغ السلطان العثماني محمد الثاني من حروبه لإخماد ثورة اسفندريار أوغلو في سينوب أتجه إلى حرب التركمان، وزعيمهم أوزون حسن، وأضطر أوزون حسن من التدخل لتحول بين السلطان محمد الثاني، ومعاودة هجومه على إبنها واستجاب لها السلطان.

وفي عام ١٤٦٧/٨٧٢ تمكن أوزون حسن من فتح فارس وقضى على القره قيونلى، ولما حاولت القره قيونلى محاربة أوزون حسن في مقره بديار بكر تمكن من التغلب عليها وهزمها. ثم تمكن أوزون حسن من فتح فارس كلها.

وفي عام ١٤٧٢/٨٧٧ عاد أوزون حسن لمهاجمة الدولة العثمانية، فاضطر السلطان محمد الثاني للعودة لمحاربة أوزون حسن وصارت المعركة سجالاً بين الطرفين حتى تمكنت جنود الإنكشارية من تحقيق النصر. ثم نزل السلطان محمد عند نصيحة الوزير الأول ويم يتعقب أوزون حسن لوعرة الطرق. وفي عام ١٤٧٨/٨٨٣ توفى أوزون حسن وخلفه

ولده خليل، إلا أن صراعاً نشب بينه وبين أخيه يعقوب الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة، وتغلب يعقوب على أخيه خليل، وتولى الحكم على أذربيجان وأرمينية وإيران حتى خراسان وهي ممتلكات أبيه أوزون حسن.

وفي عام ١٤٩٠/٨٩٦ توفى يعقوب، الذي في عهده ظهرت دولة أردبيل الصوفية التي ستصبح نواة للدولة الإيرانية، وأردبيل هذه تقع في أذربيجان الشرقية على بعد ٣٥ ميلاً من بحر قزوين.

وظهر في أردبيل الشيخ اسحاق صفى الدين وهو صوفى فارسي– تركماني يروى انه من اصل علوي، أنجب صفى الدين ولدا هو صدر الدين بن صفي الدين.

ولما ظهرت خلافات بين أفراد هذه الجماعات الشيعية خرج على أثرها الشيخ جنيد وهو دون سن الرشد واتجه إلى آسيا الصغرى محتمياً في جبل أرسوس على خليج الإسكندرونة. ثم لم يلبث أن غادر هذا المكان متجهاً إلى جانيق على البحر الأسود. ومن هنالك أعلن الجهاد ضد طرابزون. إلا أن السلطان محمد الحقها ضمن أراضي الدولة العثمانية.

ولما ألتجأ جنيد إلى أوزون حسن رحب به وزوجه أبنته، ثم قتل في إحدى المعارك في عام ١٤٦٠/٨٦٥م وأنجبت زوجة جنيد ولده حيدر الذي نشأ في بيت جده أوزون حسن وبرعايته.

وفي عام ١٤٧٠/٨٧٥ أعاده أوزون حسن إلى أردبيل ليخلف أباه جنيد في حكمها.

ولما بلغ حيد سن الرشد وانتهت وصية عمه جعفر عليه زوجة أوزون حسن كبرى بناته دسبينة خاتون أميرة طرابزون، فرزق في عام ١٤٧٨ ثان أولاده اسماعيل الذي قدر له فيما بعد أن ينشئ الدولة الصفوية.

وفي عام ١٤٨٨/٨٩٤ قتل حيدر في معركة حربية بين القزل باش والتركمان، عند سطح جبل البرز، وضم يعقوب أبناء أخيه وأمهم إليه فحملهم من أردبيل إلى أصطخر في

مقاطعة فارس. ثم توفى يعقوب ودب خلاف بين أبنائه لنزاعهم على الخلافة فاطلقوا أولاد حيدر ليدعوا أتباعهم إلى نصره رستم حفيد وسبينه على بايسنقر بن يعقوب.

وفي عام ١٤٩٣/٨٩٩ حاول السلطان علي أكبر أولاد حيدر، تولى الزعامة في أربيل، ودارت معركة لم يتم لعلي النصر فيها وقتل في المعركة.

وحجب أنصار علي أخويه إسماعيل وإبراهيم في أردبيل عن الأعين حتى لا يقبض عليهما.

ثم خرج اسماعيل وهو في الثالثة عشرة من عمره من أدربيل. وفي عام ٩٠٦ /١٥٠٠ أنضم إليه جماعة من أنصاره وتمكن بهم من الدخول إلى تبريز حيث توج ملكاً على تبريز في فارس، وهناك جعل التشيع مذهباً رسمياً للدولة على الرغم من الأغلبية السنية في البلاد.

وفي عام ١٥٠٣/٩٠٩ تمكن اسماعيل شاه من الاستيلاء على الجزيرة الفراتية في العراق وبذلك يكون قد سيطر على النجف وكربلاء المدينتين المقدستين عند الشيعة.

ثم بدأ اسماعيل شاه يتجه بعد ذلك إلى محاربة العثمانيين ولما حارب اسماعيل شاه العثمانيين، تغلبوا عليه في جالدران ، وتم عقد صلح بينهما.

وفي عام ١٥٢٤/٩٣١ توفى اسماعيل شاه وهو في الثامنة والثلاثين.

وفي نفس العام تولى طهما سب بن اسماعيل حكم البلاد وهو في العاشرة من عمره وظل حكم البلاد مدة أثنين وخمسين سنة حارب خلالها الأوز بك في الشرق والعثمانيين في الغرب.

إلا أن كثرة الحروب التي دخلتها الدولة أضعفت من حالة الاستقرار والامن الداخلي وأرهق الشعب من ذلك كثيراً.

توفى طهما سب[١٢] في عام ١٥٧٦/٩٨٤ وخلفه في الحكم ولده محمد ضرابنده الذي جعل مقر حكمه هراة من عام ١٥٣٦/٩٣٤ إلى عام ١٥٥٢/٩٦٤ م ثم تخلى عنها واستبدلها بحكم شيراز.

أما اسماعيل الثاني، الذي تمكن من التغلب على حاكم أرضروم أسكندر باشا عام ١٥٥٢/٩٦٠ ثم عهد إلهي بحكم خراسان في عام ١٥٥٦/٩٦٤م.

وكانت الشكوك قد دفعت بأبيه أن يحبسه في عام ١٥٥٧/٩٦٥ في قلعة قهقهة في جيل سولان بين أردبيل وتبريز، ثم تمكن أنصاره من إخراجه من معتقله بالقلعة. وقد عمل إسماعيل الثاني على إلغاء سب الخلفاء الثلاثة الراشدين من فوق منابر الشيعة.

وفي عام ١٥٧٧/٩٨٥ توفى اسماعيل الثاني. وبعد منازعات على العرش تولى العرش محمد خدابنده، وعمل محمد هذا بعد توليه العرش على التخلص من اخته لأمه بيرى خان خانم، ومن ابن اسماعيل القاصر.

ولما كان محمد خدابنده نصف أعمى فقد تولت شؤون الدولة نيابة عن زوجة فقتلها أحد زعماء القزل باش.

ولما رأى عباس ثاني أولاد الشاه ما أنتهت إليه الدولة من ضعف وكان حاكما لخراسان لجأ إلى التدخل في شؤون الحكم وأرغم أباه على التخلى عن الحكم في عام ١٥٨٧/٩٩٦م.

حكم عباس الكبير (١٥٨٨/١٠٣٩/٩٩٧-١٦٢٩) حكم عباس الدولة الإيرانية نحو ثلاث وأربعين سنة بلغت فيها الدولة ذروة قوتها.

تولى عباس الكبير الحكم وهو ابن سبع عشر سنة سعى خلالها ليضمن لنفسه حرية العمل.

---

[١٢] يروى عن طهما سب أن الرؤى والأحلام قد لعبت في حياته السياسية دوراً لصالح شعبه، وذلك أنه رأى فيما يرى الدائم أن ملاكاً، توعده وأخافه من اجل أن يرفع أو يخفف من الضرائب التي فرضت على الشعب، وقد استجاب لصالح شعبه.
كما أن طهما سب رأى الإمام على الرضا وقد أنبه فيها، لتعاطيه الخمر، فأقلع عنها.

فتنازل للعثمانيين بعقد صلح عن أذربيجان والكرج وجزءا من لورستان. وتعهد بالكف عن سب الخلفاء الراشدين، كما بعث بابن عمه حيدر ميرزا رهينة لدى العثمانيين، وعمد عباس بعد ذلك إلى التفرغ للداخل فعمل على إقرار حالة الأمن ومنع العدوان الخارجي عليها.

وفي عام ١٥٩٨/١٠٠٧ توفى زعيم الأوزبك الخان عبد المؤمن فقام عباس بطردهم من البلاد. ثم عمد إلى تقوية جيشه وقد عاونه على ذلك مغامران إنجليزيان فقدما له ما يعينه على تسليح الجيش الفارسي بسلاح المدفعية، مثله في ذلك مثل الأتراك العثمانيين.

ثم أنشأ فرقة فدائية على غرار الانكشارية من الكرج والأرمن الداخلين حديثاً في الإسلام، وحرساً تركيا أسماه (شاه سوان).

وفي عهد السلطان العثماني محمد الثالث تمكن الشاه عباس من استرداد تبريز في عام ١٦٠٢/١٠١١، وشروان وبغداد. كما استرد جزيرة هرمز من البرتغاليين في عام ١٦٢٢/١٠٣٢ وعزز الحدود مع مرو وبلخ.

وأنشأ قاعدة تجارية في ثغر كمرون وأطلق عليها اسم (بندر عباس) ثم نقل العاصمة إلى أصفهان.

وعمر عباس أصفهان بالمباني الفخمة مثل الجامع الكبير وقصر الأعمدة الأربعين، والجسر الكبير.

كما خففت من بعض الطقوس الشيعية كالتطبير وازدهرت الحياة الفكرية في عهده في فارس.

وعنى عباس الكبير بالفلسفة والعلوم الطبيعية والفقه وأهتم بالعلماء مثل صدر الدين الشيرازى.

ولا تزال فلسفة الشيرازى لامعة حتى عصرنا وقد أثر الشيرازى في حياة الناس في مدينة قم المقدسة. كذلك أزدهر الشعر والموسيقى في عهد عباس الكبير.

البحرية العثمانية في غرب المتوسط وبلاد المغرب

أتجه السلطان سليمان الكبير إلى تعزيز قوته البحرية كهدف رئيسي لتنفيذ مشروعاته البحرية، وبسط سلطان الدولة العثمانية بالقوة البحرية القوية.

وخلال ذلك ورد إلى السلطان سليمان العثماني رسالة من أحد رجال البحر الكبار يعلن ولاءه للسلطان وفتوحاته في الساحل الأفريقي في الجزائر. وسرعان ما قبل السلطان الرسالة واستجاب لهذا البطل البحري وهو خير الدين بربروس وهو قرصان يوناني الأصلي من جزيرة (لسبوس)، ولقبه "بايلاريك" أي أمير الأمراء وزمروه بالجنود وبعض السفن.

وهكذا ساهم الأتراك في حروب بلاد المغرب العربي والأسبان.

وتمكن خير الدين حتى عام ١٥٣٦/٩٤٢ من تحرير السواحل الشرقية والغربية الجزائرية ودمر الأسطول الأسباني في أكثر من موقع. وتوقفت بعد ذلك الحرب الصليبية الأسبانية.

وتأسست دولة عثمانية إسلامية في الجزائر وبقيت ترفع راية الإسلام وتحمى الشعب الجزائري من العدوان الصليبي عليها. وبقيت الأحوال مستقرة بقوة السلاح.

ثم تولى حسن خير الدين مكان أبيه في حكم البلاد، ومنحته الدولة العثمانية لقب (بايلاريك)

ولما عاود الأسبان في عهد ملكهم شارل الخامس هجومهم على البلاد بالأسطول البحري في عام ١٥٤١/٩٤٨ هزم هزيمة نكراء وتحطمت السفن واستولى الجزائريون على الغنائم وشاركهم فيها المهاجرون الأندلسيون لمشاركتهم في القتال ضد الأسبان المعتدين.

كما طرد الأسبان من المرسى الكبير الذي كانوا يحتلونه هناك، ومن كل النواحي ما عدا وهران التي انسحب منها الأسبان فيما بعد، وفي عهد القائد البحري حسن خير الدين الذي تمكن من طرد الأسبان منها.

وفي عام ١٥٥٧/٩٦٥ قام الكونت والكاووت بالهجوم على المرسى الكبير فقتل قائدهم وانهزموا مدحورين وكذلك هاجم الأسطول الدانمركي البلاد عام ١٧٧٠/١١٨٤ وانسحب منها منهزماً.

وظل الحكم العثماني يبسط سلطانه على البلاد ويصد عنها غارات الأعداء ويقهرهم ثم بسط العثمانيون سلطانهم على تلمسان بعد مناوشات مع زناته التي تكرر تعاونهم مع الأسبان ضد بني جنسهم وملتهم، فاقتى الفقهاء بابعادهم عن حكم تلمسان وضمت إلى بقية الجزائر.

وقد وضع خير الدين نظام الحكم في البلاد ورتب القوانين والدواوين، وحدد الرواتب، وشكلت الانكشارية وهم جند الدولة العثمانية أولئك الذين عنيت بترتيبهم عسكرياً وهم إما من رعايا الدولة أو من بلاد الأناضول أو من الأطفال الأسرى من البلاد الأوربية.

وكان على كل مائة، رئيسي يسمى الداى. كما خطب للسلطان العثماني في المساجد وضربت السكة باسمه ثم حاول الدايات حكم البلاد مستقلين عن السلطان العثماني . فعدلوا نظام الحكم من البالاريك إلى الباشا. ثم تداول في رؤساء الانكشارية المعروفين باسم الدايات الحكم ثم فشت الرشوة وانتشر الظلم وفسد نظام الحكم في البلاد فقامت الثورات ولكن طالما تغلب الحكام عليها.

ولم يحاول الدايات معرفة لغة الشعب أو عاداته أو تقاليده. وظلوا بعيدين عن الشعب. ولذلك لم يتحول الحكم إلى الشعب. ثم تطورت الأمور إلى وقوع البلاد في يد الفرنسيين الذين أجبروا الانكشارية على الرحيل من البلاد بعد حكم دام ثلاثة قرون أو تزيد.

السلطان سليم الثاني (٩٧٤-٩٨٢/١٥٦٦-١٥٧٤)

كان سليم الثاني في مغنيسيه مقر حكمه حين علم بموت أبيه سليمان الكبير في عام ١٥٦٦/٩٧٤ فأسرع متجهاً إلى استانبول وتقابل مع الصدر الأعظم محمد صوقللى، وأغرى سليم الثاني قادة الانكشارية بالأموال الكثيرة حتى ينال تأييدها في تولى العرش مكان أبيه. ثم ترك السلطان سليم الثاني للصدر الأعظم القيام بتصريف شؤون الدولة. فعقدت معاهدة الصلح مع النمسا في عام ١٥٦٨/٩٧٦ مقابل مبلغ من المال يدفعه العثمانيون للنمسا، وعلى أن تعترف الدولتان بالأوضاع القائمة.

ثم تدخل أحد كبار اليهود الذين يميل إليهم السلطان سليم وأوعز إليه بخوض حرب ضد البندقية . وذلك ليستولي على جزيرة قبرص، وقامت حرب بين الطرفين ساعدت فيها في عام ١٥٧١/٩٧٩ قوات متحالفة من ملك النمسا دون جون وفيليب الثاني ملك أسبانيا والبابا بولس الخامس، أنهزم فيها الأسطول العثماني ولكن لم يواصل دون جوان متابعة الحرب ضد العثمانيين، وأنصرف الحلفاء من الموقعة. وكان النصارى ينتظرون في الجزيرة مؤملين التدخل من الحلفاء حتى تتمكن الجزيرة من التخلص من العثمانيين. ولكن انصرف الحلفاء مبكرين من المعركة، مما ساعد العثمانيين للاعداد القوى لهجوم جديد على الجزيرة كما أن البنادقة أهملوا عمل التحصينات اللازمة من إجراء، تحسينات وترميمات للمواقع الدفاعية لهم وفضلوا عقد صلح مع العثمانيين وتنازلوا فيه عن قبرص في عام ١٥٧٣/٩٨١م وتوفي السلطان سليم في عام ١٥٧٢/٩٨٢م.

السلطان مراد الثالث (٩٨٢-١٠٠٣/١٥٧٤-١٥٩٥).

تولى عرش السلطنة مراد الثالث وهو الثاني عشر من السلاطين العثمانيين في ولاية الحكم.

عرف عن مراد الثالث الثبات وقوة العزيمة إلا أن تيار الترف جرفه أكثر من أبيه، الأمر الذي دفع بأمه نور بانو وزوجته صفية إلى التدخل في شؤون الحكم وبسط سلطانهم عليه، مما ترتب عليه إثارة المشاكل، وعمدت البندقية إلى إثارة الحكام في فارس ضد الدولة العثمانية، ثم أتجه النشاط الحربي للعثمانيين إلى مهاجمة بلاد القوقاز في ١٥٧٧/٩٨٥ م وفتحوا مدينة تفليس. وفي عام ١٥٧٩/٩٨٧ أقاموت قلعة قرص ليدعموا نفوذهم هناك إلا أنهم لم يتمكنوا من النفوذ إلى تبريز عاصمة فارس السابقة إلا في عام ٩٣٣-١٥٨٥م. ثم عمل عباس الكبير على مصالحة العثمانيين بطريقته في شراء ما يتعذر عليه أخذه بالقوة.

ومد العثمانيون نفوذهم إلى جنوب روسيا في فترة الحرب مع الفرس ليسهل لهم حربهم ضد الكرج، في عام ٩٨٩-١٥٨١/٩٩١-١٥٨٣م.

ثم عمل العثمانيون على التدخل في شؤون بولنده، وفي عام ١٥٩٥/١٠٠٤ توفى السلطان مراد الثالث.

السلطان محمد الثالث (١٠٠٣-١٥٩٥/١٠١٢-١٦٠٣).

تولى محمد الثالث حكم قاطعة مغنيسة القصن التدريب على أصول الحكم.

وفي العام التالي لتولي محمد الثالث عرش السلطنة العثمانية شارك في القتال ضد جيوش آل هابسبرج في أكرى وحقق فيها انتصاراً. ولكنها استمرت في خطى بطيئة وظلت قائمة حتى وفاة السلطان محمد الثالث في عام ١٦٠٣/١٠١٢ وتولى ابنه أحمد عرش البلاد.

السلطان أحمد الأول (١٠١٢-١٦٣/١٠٢٦-١٦١٧)

وفي أثناء تلك الحرب التي دارت رحاها بين العثمانيين وآل هابسبورج، وأحرز فيها العثمانيون النصر في أكرى، إلا أن الحرب سارت بطيئة الخطى، توفى خلالها السلطان محمد الثالث في عام ١٦٠٣/١٠١٢، وتولى مكانه على العرش أبنه أحمد وفي أثناء تلك

الحرب أيضاً تولى بوكسكاى الأمير المجري عرش ترانسلفانيا، ثم عقد صلح بين الطرفين بمعاهدة سيتفاتورك في عام ١٦٠٦/١٠١٥ وتنازل العثمانيون فيها عن الجزية التي يتقاضونها منهم سنوياً

الموقف الداخلي:

بعد أن هدأ المد الحربي الخارجي للدولة العثمانية بدأ الجنود الانكشارية يتحولون إلى روح من الضعف والتخاذل إلى حد الخيانة، حتى أن سوء معاملة جفالة الصدر الأعظم دفعت بالكثير من الجنود الاقطاعيين إلى الهرب من الدولة عائدين إلى خارج الدولة وأحياناً إلى وطنهم الأول ففي عام ١٥٩٩/١٠٠٨م أعلن عبد الحليم قرة يازيجي قائد فرقة (الصكبان) الانكشارية حركة عصيان ضد الدولة ثم قام باحتلال الرها، وحاول العثمانيون استمالته بمنحه ولاية أماسيه، إلا أنه تمادى في حركة العصيان، وعمل على فرض سلطانه على أرض جديدة للدولة العثمانية. ففي عام ١٦٠٠/١٠٠٩ حارب وإلى دمشق وبغداد في معركة قرب كيسانيه، ولكنه لم يلبث أن قتل فحل أخوه مكانه وظل تواصل حكمه في تلك البلاد حتى عرض عليه العثمانيون لتولي حكم البوسنة، ولكنه قتل في حصار بودا عام ١٦٠٣/١٠١٢.

ثم تمردت حامية تبريز العثمانية فاستولى شاه عباس على المدينة، وأصبح العثمانيون يقاتلون في جبهتين، في آسيا الصغرى. ولكن العثمانيين تغلبوا على هذه المشاكل.

وخضعت تلهم تبريز، وعقد شاه عباس معاهدة سلم مقابل إعفائه من الجزية السنوية ثم توفى السلطان أحمد في عام ١٦١٧/١٠٢٧.

وتولى مصطفى الزول عرش السلطة مكانة باعتباره أكبر أمراء البيت المالك. ثم اضطر إلى التنازل عن العرش، لأبن أخيه عثمان الثاني، بعد ثلاثة أشهر من توليه العرش.

السلطان عثمان الثاني (١٠٢٧-١٠٣١/١٦١٧-١٦٢١)

وفي عهد عثمان الثاني قامت المنازعات الحدودية بين العثمانيين وبولينا. وفي عام ١٦٢٠/١٠٣٠ قامت الحرب بينهما حتى أن السلطان شارك بنفسه فيها. إلا أن الهزيمة لحقت بالعثمانيين عند أبواب قلعة خوتين، وفي عام ١٦٢١/١٠٣٠ اضطر العثمانيون إلى قبول الصلح لهزيمتهم في المعركة.

وأتفق السلطان العثماني مع الصدر الأعظم علىخطة تقضي بإبعاد الانكشارية عن السلطة، إلا أن خطتهم، انكشفت عن طريق بعض أعوانهم في قصر السلطان. فتدخلوا لإيقاف الخطة وأرغموا الخليفة على التنازل عن العرش وأعيد إلى عرش السلطة مصطفى الثاني وكان ناقص الأهلية.

أما عن السلطان عثمان الثاني المخلوع فقد تخلصوا منه بالقتل في (يدي قوله) بإيعاز من الصدر الأعظم الجديد، في عام ١٦٢٢/١٠٣٣. ولكن لم يبق السلطان مصطفى الثاني في الحكم غير سنتين، تمكنت خلالها الشخصيات القوية في الدولة العثمانية من إعادة الأمور إلى نصابها فأبعد مصطفى عن العرش وتولى مراد الرابع عرش السلطنة في عام ١٦٢٣/١٠٣٢م.

السلطان مراد الرابع (١٠٣٢-١٠٤٩/١٦٢٣-١٦٣٩)

تولى مراد الرابع عشر السلطنة – وهو في الحادي عشر من عمره وهو السابع عشر من سلاطين الدولة العثمانية، وقد حالف مراد ارابع التوفيق في التخلص من الانكشارية في عام ١٠٤٢/١٦٣٢ كما تخلص من زعمائهم بفضل تعاون رجال الدولة المخلصين، وأسس جيشاً جديداً وفقاً لنظم جديدة.

ثورة أمير لبنان الدرزى فخر الدين ودحرها:

ثار الأمير فخر الدين في عام ١٠١٢/١٦٠٣ وشاركه في الثورة جان بلاط الكردى، ضد العثمانيين. ولكن العثمانيين لم يقابلوا الثورة بالعنف، وإنما بالملاينة، فقد عرضوا على الأمير البقاء كما هو مقابل دفع مبلغ من المال كل عام يقدمه للدولة العثمانية.

وفي خلال تلك الفترة أتصل فرديناند الأول دوق تسكانا بفخر الدين للتبادل التجاري بين البلدين.

وفي عام ١٠١٩/١٦١٠ م استولى على بعلبك وحاول الاستيلاء على مدينة دمشق لولا أن أسطولا عثمانياً ظهر على الشاطئ في عام ١٠٢٢/١٦١٣ م ففر فخر الدين إلى أوربا وظل بها في فلورنسا نحو خمس سنوات يحرض الأوربيين للقيام بحملة صليبية ضد العثمانيين. ولكن كرسموس الذي تولى الحكم بعد أبيه فردينا لم يستيجب لفخر الدين، ثم قامت أمه وتدعى نسب في خلال غياب فخر الدين، إلى إدارة شؤون البلاد باسم حفيده أحمد علي، ولما عاد فخر الدين إلى البلاد لم يعترض على الأوضاع التي تمت في غيابه، بل واجه العثمانيين ليمنعهم عن البلاد.

ولما قامت الحرب بين فارس والعثمانيين عمل فخر الدين على بسط نفوذه إلى الشاطئ السوري حتى أنطاكية.

وفي عام ١٠٤١/١٦٣١ رفض فخر الدين استضافة الجيش الذي وجههته الدولة العثمانية لحرب الفرس ليقضى فصل الشتاء في بلاده وطرد الجيش العثماني بالقوة فاضطر

العثمانيون إلى تجهيز حملة بحرية إلى الشام في ١٦٣٣/١٠٤٣ لاحتلال جميع المرافق، ثم هاجم الولاة العثمانيون الدروز برا – ثم استدرج العثمانيون على بن فخر الدين إلى معركة في السهول هزم فيها وقتل هو وعمه. ثم قبض على فخر الدين وأرسل إلى أستانبول وقتل بها في ١٦٣٥/١٠٤٥.

ثم قامت الحرب ضد الفرس في عام ١٦٣٢/١٠٣٣ بعد أن فر وألي بغداد إلى الشاه وسلمه بغداد وظلت الحرب بين الفرس والعثمانيين في شكل حرب عصابات مدة خمسة عشرة عاماً، وفي القبق وأذبيجان.

ثم خرج السلطان مراد الرابع بنفسه وقاد الحرب ضد الفرس وأرمينية، وتمكن في عام ١٦٣٨/١٠٤٨ م من فتح بغداد وعقد صلح مع الفرس. وفي عام ١٦٣٩/١٠٤٩ مات السلطان مراد الرابع وتولى أخوه إبراهيم عرش السلطنة.

السلطان إبراهيم (١٤٠٩-١٦٣٩/١٠٥٨-١٦٤٨)

عمل الصدر الأعظم قرة مصطفى، كل جهد في سبيل إصلاح أحوال البلاد، فأخذ بأسلوب الانفاق بالقدر الضروري، في الجيش والأسطول، وعمل على إصلاح السكة وإقامة نظام جديد للضرائب، ووقف في وجه التدخل من جانب سيدات القصر في شؤون البلاد، إلا أن السلطانة الوالدة وثلاث من محظيات السلطان حرضن الانكشارية على الصدر الأعظم، وطالبوا برأسه ولم يستطع السلطان ابراهيم صدهم عن تنفيذ ما أرادوا وذلك في عام ١٦٤٤/١٠٥٤.

تجديد النشاط الحربي للعثمانيين في أوربا

حاول العثمانيون في عهد السلطان إبراهيم الظهور بمظهر القوة البحرية في أوربا من جديد. ففي عام ١٠٥٤/١٦٤٤ بدأت دور الصناعة في الدولة العثمانية تزدهر وبعد إعداد العدة للاستعداد للحرب في أوربا وأصدر الباب العالي أمراً باعتقال جميع البنادقة المقيمين في الدولة العثمانية ومصادرة ممتلكاتهم، ثم أعلن الحرب على البندقية. ثم رسى الأسطول العثماني عند جزيرة كريت وأحتل حانية. ولما سارت الأمور البحرية بصورة متأنينة ثار العثمانيون على السلطان إبراهيم وأتهموه بتبديد ثروات البلاد، لأسلوب المواجهة الضعيفة للأسطول العثماني في تحركاته الحربية ضد البندقية.

وفي عام ١٠٥٨/١٦٤٨م خلع إبراهيم عن العرش ورفع أبنه محمد الرابع إلى العرش وهو ما يزال صبياً.

السلطان محمد الرابع (١٠٥٨-١٠٩٩/ ١٦٤٨-١٦٨٧)

لم تكد تمض على محمد الرابع ثلاث سنوات حتى واتت البلاد الفرصة لتحسين الأوضاع والنهضة بالبلاد إلى سابق عهدها الزاهر.

ففي عام ١٠٦٢/١٦٥١م تمكن البنادقة من دحر الأسطول العثماني عند باروس، وعند ذلك استدعى محمد باشا الصدر الأعظم كوبريلى، لينقذ البلاد من الهزيمة التي لحقتها من البنادقة وجاء كوبريلى إلى استانبول وقد بلغ الثمانين من عمره وتولى منصب الصدر الأعظم في عام ١٠٦٧/١٦٥٦ واشترط على السلطان أن يمنحه سلطة مطلقة مع الإشراف على جميع المناصب والدوائر.

وتمكن بهذه الطريقة من القضاء على روح الثورة باستخدام أسلوب العنف والقسوة حتى إنه لم يسلم منه المقربين إلى القصر والسلطان. وتمكن كوبريلى من إنعاش الحياة المالية

واستعان في تحسين الأحوال بخزانة السلطان الخاصة والإنفاق بسخاء، كما أنه حل الأوقاف وقلل من الموارد الخاصة برجال الدين.

وقبل وفاة كوبريلى في عام ١٠٧٢/١٦٦١م عمل على أن يضمن لأبنه أحمد خلافته في منصبه هذا الذي نجح في تثبيت ما قام به أبوه من إصلاح وإتمامه بغير أن يلجأ إلى أسلوب القسرة الذي أتبعه أبوه من قبل.

وبذلك ظهرت في الدولة العثمانية روح جديدة وضحت آثارها في الخطوات التي قامت بها الدولة في أنحاء العالم الأوروبي المجاور للدولة العثمانية.

عمل العثمانيون على إجراء بعض التعديلات في وظائف بعض الأمراء التابعين بسبب تصرفاتهم وتملصهم من سداد ما عليهم من أموال للدولة العثمانية.

وذلك مثل الأمير جورج راغوجكى، الذي تباطأ في تقديم الأموال للباب العالي، فابعده وعين مكانه (الأمير ميخال) أبافى، فعارضه الإمبراطور الترانسلفاني ببضغط من الشعب المجري فظهرت بسبب ذلك فكرة الاتحاد الأوربي المناهض للوجود العثماني في أوربا.

في معركة بحرية بين العثمانيين والمجر أنتصر المجريون عند جبل القديس غوتارد على نهر الراب.

ثم أقدم الإمبراطور على عقد صلح في عام ١٠٧٦/١٦٦٥ مع العثمانيين ليتفرغ لمشاكل السياسة الفرنسية المناهضة.

وفي عام ١٠٨٠/١٦٦٩ تم عقد معاهدة للصلح بين النبادقة والعثمانيين تمت بموجبه خضوع جزيرة كريت لسلطان العثمانيين بعد انسحاب البنادقة منها.

بدأ العثمانيون بعد أن أنتهوا من مشاكلهم الحدودية الشرق آسيوية. يتجهون إلى حدودهم الشمالية في أوربا الشرقية. ففي عام ١٠٧٩/١٦٧٢ عقد ميخال ملك بولنده معاهدة تنازل فيها العثمانيين عن بودليا وأوكرانيا، وذلك لضعف موقفه الذي تخلى فيه مرغماً عن قامنج وتقع على المناطق الحدودية من دولته، ولم تكن هناك فرصة أمل في أن

يسانده أحد من أوربا خاصة، وأن لويس الرابع عشر ملك فرنسا لم يكن يبدو في الأفق أنه ينوي مساندة أحد ضد العثمانيين.

ولما حاول مارشال سوبيسكى نقض المعاهدة بعد وفاة ميخال، وارتقائه العرش البولندي ولقب بـ(حنا الثالث) عام (١٠٨٥-١١٠٨/١٦٧٤-١٦٩٦) لم يوفق في هذه الخطوة، وذلك حين حاول العبور من الدنيستر في عام ١٠٨٧/١٦٧٦ م وطوقت قواته عند زور أونو وأرغم على عقد معاهدة تنازل فيها عن جزء كبير من بودليا وأوكرانيا. وحتى تلك المعاهدة تنازل فيها عن جزء كبير من بودليا وأواكرانيا. وحتى تلك المعاهدة التي عقدتها بولنده مع العثمانيين لم تكن لتحصل عليها بولنده لولا أن حرباً قامت بين الروس والعثمانيين بسبب أهل القوقاز في أوكرانيا، وتم الصلح بينهما في ١٠٩٢/١٦٨١م واستولت بموجب هذه المعاهدة على كيف وما حولها.

العثمانيون في فيينا والمجر

بعد أن أطمأن العثمانيون على موقفهم من الناحية الشرقية عادوا إلى حرب المجر مرة أخرى. فقد أغراهم النبلاء المجريون يتزعمهم الكونت تكلى، لكي يضموا المجر إلى الحكم النمسوى على أن يقدموا جزية سنوية للعثمانيين.

وقد وافق العثمانيون وبعثوا بجيشهم من بلغراد لحرب الأمبراطور المجري في عام ١٠٩٤/١٦٣٨ وانتظر الإمبراطور المجري أن يأتيه العون من أوربا إلا أن العثمانيون قاموا بحصار العاصمة بقيادة الصدر الأعظم عمر مصطفى إلا أن المانيا فاجأتهم بإرسال جيشها حيث تعاونت مع بولندا ضد العثمانيين، وهزم العثمانيين في قاهلنبرج وأرغموا على رفع الحصار عن العاصمة المجرية. ثم عمل الخلفاء على إنقاذ المجر بكاملها من العثمانيين في ١٠٩٦/١٦٨٤م.

وتدخل البابا ليشد من عزيمة الحلفاء ضد العثمانيين وعقد حلفا ضم المجر وبولندا والبندقية – فيما بعد – لمحاربة العثمانيين.

وفي عام ١٦٨٦/١٠٩٨ مني العثمانيون بالهزيمة أمام هذا الحلف، وسقطت بودا في الحصار الذي دبره الألمان، وكانت بودا دعامة للحكم العثماني ضد المجر طوال ١٤٥ عام.

ثم أنضمت روسيا إلى هذا التحالف وحاولت الاستيلاء على شبه جزيرة القرم ولكنها لم توفق.

وفي عام ١٦٨٧/١٠٩٩ لحقت الهزيمة بالعثمانيين مرة أخرى في موقعة موهاكس بالمجر، وعندئذ قامت الثورة ضد سليمان الصدر الأعظم وأمتدت إلىاستانبول، واضطر السلطان إلى التضحية بسليمان إلا أن الثورة لحقته هو أيضاً وتم خلع السلطان محمد الرابع، بتوجيه من مصطفى بن أحمد كوبر يلى نائب الصدر الأعظم ليتولى أخوه سليمان الثاني عرش السلطنة.

سليمان الثاني (١٠٩٩-١١٠٢/١٦٨٧-١٦٩٠)

ولما تولى مصطفى كوبريلى منصب الصدر الأعظم استطاع العثمانيون بفضل كفاءته الوقوف أمام التيار الذي ينادى بطرد العثمانيين في أوربا.

وفعلا قامت القوات المجرية بالزحف على بلغراد في عام ١٦٨٨/١١٠٠ واستولت عليها.

إلا أن العثمانيون ما لبثوا أن استردوا بلغراد في عام ١٦٩٠/١٠٠٢.

ثم تولى عرش السلطنة أحمد الثاني في المدة من (١١٠٢-١١٠٦/١٦٩٠-١٦٩٤) ثم تولى بعده أبن أخيه مصطفى الثاني في عام (١١٠٧-١١١٥/١٦٩٥-١٧٠٣).

والسلطان مصطفى الثاني، من السلاطين الأقوياء، فهو حين تقلد بنفسه القيادة العليا في المجر تمكن م إنقاذ طمشوار ولكنه هزم عند زنطه على نهر تيس عام ١٦٩٦/١١٠٨ ، وفي تلك الفترة تولى عموده زاده حسين وهو من أسرة كوبريلى القيادة الإدارية في استانبول.

وفي عام ١٦٩٦/١١٠٨م قاد القيصر بطرس الحرب ضد العثمانيين، وغزا آزوف (آزاق).

وهنا عقدت معاهدة صلح في عام ١٦٩٩/١١١١ في كارلويج تخلى فيها العثمانيون عن ترانسلفانيا حتى طمشوار وعن المجر، وكذا القسم الأكبر من اسلاوونيا وكرواتيا وتنازلوا للمجر عن قامنج وبودوليا وأوكرانيا، وتنازلوا للبنادقة عن المورة، بعض المناطق في دالماسيا وكانت هذه التنازلات بوساطة عرضها على السلطان العثماني بريطانيا وهولندا ووافق عليها السلطان.

ثم أنسحب السلطان بعد ذلك متجهاً إلى أردنه. وسلم شؤون الحكم كلها للمفتي فيض الله أفندي.

ثم قامت الثورة في عام ١٧٠٣/١١١٥م وأبلغ السلطان للتوجه من أدرنه مقر إقامته إلى استانبول، لمواجهة الديوان فيما يوجه إليه من مساءلات فرفض ولم يحضر لاستانبول وبقى في موقعة في أدرنة.

وإزاء موقف السلطان هذا، أعلن المجتمعون في استانبول خلع السلطان أحمد الثاني وولوا مكانه السلطان أحمد الثالث .

السلطان أحمد الثالث (١١١٥-١١٤٣/١٧٠٣-١٧٣٠)

تمكن القيصر الروسي بعد معاهدة كارلوويج من العبور إلى البحر الأسود بعد أن كان بحيرة عثمانية مغلقة.

ولما توترت العلاقات بين القيصر والسلطان العثماني ترك القيصر اهتماماته في اتجاه البطليق ووجه وجهته إلى الجنوب.

وفي حربه مع العثمانيين عام ١٧١٠/١١٢ كاد أن يقع في الأسر لولا الخيانة التي وقعت من الصدر الأعظم، الذي قبل رشوة من القيصر ليمكنه من الإفلات م الأسر عند نهر البروت، وانسحب بشروط أخلى بموجبها أزوف (آزاق) وحطم حصون طيفان تماماً.

ثم أتجه العثمانيون إلى شن حرب على البندقية يعد خلاف وقع في الجبل الأسود وأتخذه العثمانيون مبررا لمحاربة البندقية التي فقدت فيها المورة وجزء الأرخبيل.

وفي عام ١٧١٨/١١٣١م تنازل العثمانيون عن بلغراد بكاملها إلى مصب نهر الآلوته في الدانوب .

ولما قام الخلاف بين الفرس والأفغان، بعد تولي الشاه حسين عرش الفرس في عام ١٦٩٤/١١٠٦ حيث أراد شاه حسين أن يحد من حرية الأفغان وهم أرادوا حمايتهم من حكم المغول في الهند فلجأوا إلى حماية الفرس، ثم ثاروا على الفرس وتمكنوا من الاحتفاظ باستقلالهم، حيث حاول الفرس، ثم ثاروا على الفرس وتمكنوا من الاحتفاظ باستقلالهم، حيث حاول الشاه حسين الحد من حريتهم فشقوا عصا الطاعة بزعامة رئيسهم ميرويس، ووطد سطانه كأمير مستقل حتى وفاته في عام ١٧١٥/١١٢٧.

وفي عهد خليفتهم مير محمود هاجم الأفغانيون فارس وخلعوا آخر الصفويين في عام١٧٢٢/١١٣٥ في أصفهان عن العرش.

ولما حاول القيصر الروسي بطرس الأكبر استغلال الظروف واستولى على مقاطعة داغستان القوقازية، لجأ زعيم قبائل اللاز، الذين في شروان إلى حماية الباب العالي من القيصر ودخلوا في طاعة العثمانيين، فتنازل له السلطان عن تلك البلاد حتى مصب نهر كور في نهر آراس.

ثم حاول الفرس استرجاع ممتلكاتهم لاعادتها إلى حدودها السابقة، وتردد السلطان العثماني في إعلان الحرب.

وعندئذ ثار الإنكشارية في استانبول وخلعوا السلطان أحمد الثالث عن العرش، وأعلنوا أبن أخيه محمود الأول سلطاناً على العرش في عام ١٧٣٠/١١٤٣.

السلطان محمود الأول (١١٤٣-١١٦٨/١٧٣٠-١٧٥٤)

وفي عام ١١٤٣/١٧٣٠ نودى بتولية محمود الأول سلطاناً على عرش البلاد، وأقره النظام في العاصمة بعد عامين من هذا التاريخ.

وفي فارس أعلنوا الحرب على الدولة العثمانية، ولما توفى عباس بن الشاه وكان لا يزال طفلاً عقد نادرطهما سب قوى خان صلحا تناول فيه العثمانيون عن مكاسبهم حتى بغداد ودعى نادر شاه الشيعة في فارس إلى إهمال دعوة إسماعيل الأول إلى المغالاة في التشيع وأكتفى بأن أقر مذهب الشيعة باعتباره مذهب خامس يتبع ما نادى به الإمام جعفر الصادق.

وأراد نادر شاه مهادنة العثمانيين لكي يحصل على مكان لأتباعه من الشيعة يحصلون عليه في مكة ويؤدون فيه صلواتهم، لو أن هذه الخط لم كتب لها الاستمرار فيما بعد وقاة نادر شاه.

أما عن الروسيا فقد تكررت الاختلافات السياسية بينهما وبين العثمانيين، وقد عقدت الإمبراطورة حنه عزمها على التقدم صوب البحر الأسود لولا أن شدتها الأحداث في بولندا وبحر قزوين بالإضافة إلى وقوف الدول البحرية حائلاً دون أي توسع روسي آخر.

وفي عام ١١٤٨/١٧٣٥ م هاجمت الروسيا الدولة العثمانية إلا أنها لم تصل إلى أبعد من آزوف.

وفي عام ١١٥٣/١٧٤٠ جدد السلطان العثماني اعترافه بالحماية الفرنسية على نصارى المشرق، مقابل تأييد فرنسا للعثمانيين في مواقفهم العسكرية ضد الروسيا.

وفي عام ١١٥٩/١٧٤٦ بعث العثمانيون بجيش إلى نادر شاه وافق بعدها على تعديل الحدود إلى ما كانت عليه في عهد مراد الأول وأعلن اعترافه بالسلطان العثماني خليفة للمسلمين.

ثم أغتيل نادر شاه، وتولى مكانه أبن أخيه على قولى، وسمى نفسه بعد تولية العرش، عادل شاه ثم هدأت الأحوال مع الدولة الفارسية، كما حدث مثل ذلك مع الدول الأوروبية، وتوفي محمود الأول ١١٦٨/١٧٥٤.

ثم تولى عرش السلطنة عثمان الثالث وبقى ثلاث سنوات في الحكم، حيث أعقب محمود الأول في الحكم ثم تولى بعده في عام ١١٧١/١٧٥٧ في الحكم سلطان قوى هو مصطفى الثالث.

وفي أول عهد السلطان مصطفى بالحكم أسند أمور الدولة إلى كبير وزرائه، راغب باشا الذي قام بتنظيم شؤون الحكم في الشؤون المالية وتنظيم الجيش.

ولما حاول فريدريك الأكبر إغراء السلطان العثماني للتدخل في حرب السنوات السبع ضد النمسا وتم بالفعل عقد معاهدة مع بروسيا في عام ١١٧٥/١٧٦١م إلا أن السلطان لم يقبل أن يتدخل في هذه الحرب ويشارك فيها من دافع إنساني ومن حبه للسلام وقد أيده العلماء في ذلك.

الحرب بين روسيا والدولة العثمانية:

كذلك لم يحاول السلطان مواجهة روسيا لإضعاف بولندا وذلك على الرغم من محاولاتهم إثارة المشكلات ضد الخان حاكم القرم، كما ساعدت الكرج على العثمانيين. فلما تطاول الروس وخربوا يالظا على حدود بسارابيا تقدم المفتى بإعلان ضرورة الحرب ضد الروسيا. ثم أقدمت روسيا في نفس الوقت بإرسال إسطولها إلى اليونان لإشعال الثورة ودعم الثوار ضد الدولة العثمانية، وتمكن القرصان الإيجيون من احتلال عدة مواقع حصية في المورة إلا أنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بها.

وفي عام ١١٨٤/١٧٧٠ أشعل الروس النار في الأسطول العثماني على ساحل آسيا الصغرى، إلا أن الروس لم يستغلوا هذا الانتصار العسكري ضد العثمانيين ثم تمكن العثمانيون من إخضاع شبه جزيرة القرم في عام ١١٨٤/١٧٧٠.

وفي عام ١٧٧٢/١١٨٦ تدخلت روسيا والنمسا لدى السلطان العثماني للتنازل عن جميع مطالبة في بولندا.

وفي عام ١٧٣٣/١١٨٧م تم للدولة العثمانية إعادة تنظيم الجيش بحيث يمكنها الوقوف ضد أي توسع روسي في ممتلكات الدولة العثمانية، وصمم السلطان على قيادة الجيش بنفسه، إلا

أنه مات بعد مرض ألم به في عام ١٧٧٤/١١٨ وتولى بعد العرش أخوه عبد الحميد.

السلطان عبد الحميد الأول (١١٨٨-١٧٧٣/١٢٠٣-١٧٨٨)

وفي عهد السلطان عبد الحميد، وقع الصدر الأعظم محسن زاده في كمين نصب له في ١٧٧٤ خسر فيه القسم الأعظم من قواته بسبب الفرار من الخدمة العسكرية، كما حاول عقد هدنه مع الفيلد مارشال رومیانز، وتم بالفعل عقد معاهدة صلح في ١٧٧٤/١١٨٩ تنازل العثمانيون بموجبها عن قلاع البحر الأسود ومنح حق المرور للأسطول الروسي عبر الدرنيل.،

كما اعترف العثمانيون باستقلال التتار في شبه جزيرة القرم، مع حرية العبادة لسكان البغدان والأفلاق.

وضعف شأن العثمانيين حتى ظن الجميع أن طردهم من أوروبا قد جاء وقته، وساعد هذا المناخ السياسي النمسا على القيام بعقد معاهدة استولت فيها على بوكوفينا.

وفي عام ١٧٨٣/١١٩٨ أخضعت كاترينا التتار وأقر العثمانيون هذا الوضع في معاهدة عقدت في (آيينه لى فواق) في عام ١٧٨٤/١١٩٩م.

ولما حاول العثمانيون استرداد شبه جزيرة القرم فشلت أمام جهود القائد الروسي (سوفوروف)

وفي عام ١٧٨٨/١٢٠٣ شن الروس هجوم ضد الأسطول العثماني وتمكنوا من تحطيمه على شواطئ القرم.

وفي نفس العام أعلن جوزف الثاني إمبراطور النمسا الحرب على العثمانيين، وتوغل توغلاً بطيئاً في الصرب وترنسلفانيا ثم تولى السلطان عبد الحميد الأول وفي عام ١٧٨٨/١٢٠٣وتولى العرش بعده السلطان سليم الثالث.

السلطان سليم الثالث (١٢٠٣-١٧٨٨/١٢٢٢-١٨٧٠)

وفي عام ١٧٩١/١٢٠٦ تم عقد صلح زشتوى احتفظ بموجبه العثمانيون بإمارات الدانوب حتى آرسووه. ثم وقع العثمانيون صلحاً مع روسيا في عام ١٧٩٢/١٢٠٧ جعل من نهر الدنيستر حدا فصلاً بين الدولتين الروسية والعثمانية وتنازل العثمانيون على شبه جزيرة القرن نهائياً.

وقد عمل السلطان سليم الثالث على إصلاح الجيش وفقاً للنظام الأوربي الحديث، وأخذ يعمل جهده لإصلاح الجيش إلا أنه واجه صعوبات لمعارضة الانكشارية لأية إصلاحات. فعمد السلطان سليم إلى إنشاء فرق جديدة من المشاه، وسمح للجنود من فرق الانكشارية الانضمام لهذه الفرق الحديثة متى شاءوا.

وبدأ يتخذ الزي الأوروبي، وبناء ثكنه خاصة به. وعين بعض الضباط والمعلمين من أوربا لتدريبهم وتعليمهم وعمل على مد هذه الإصلاحات في الولايات الغربية. وظهرت هذه الفكرة في الأنحاء الأخرى من الدولة.

وهنا ظهرت معارضة شديدة من رجال الدين. والانكشارية وظهر جهل رجال الدين بالتعاليم الدينية الصحيحة، ولكن هذه الردة أخذت شعبية ضد السلطان نفسه انتهت إلى خلعه عن العرش في عام ١٨٠٧/١٢٢٢.

وهكذا عادت الفوضى إلى الجيش في عهد خلفه مصطفى الرابع.

مصطفى الرابع(١٢٢٢-١٨٠٧/١٢٢٣-١٨٠٨)

جاء مصطفى الرابع إلى عرش السلطنة عن طريق الانكشارية وفي عهده توالت هزائم العثمانيين في ميادين القتال ثم أعقبه محمود الثاني.

السلطان محمود الثاني (١٢٣٣-١٢٥٥/١٨٠٨-١٨٣٩)

محمود الثاني والقضاء على الانكشارية

تولى السلطان محمود الثاني عرش السلطنة وهو مدرك أن إصلاح الجيش يتم بالتخلص من الانكشارية . فأخذ يعد العدة لهذا الأمر، حيث أن الإنكشارية يعضدها جماعات البكتاشية أكبر الطرق الصوفية في البلاد وهي ذات نفوذ وشعبية كبيرة.

حاول السلطان محمود التفاوض مع قادة الإنكشارية ولكن دون جدوى، فلما قامت ثورة الموره في بلاد اليونان وفشلت الإنكشارية في التغلب عليها، حملوا الإنكشارية المسؤولية، ثم بعث السلطان إلى محمد علي وإلى مصر لمساعدة الدولة العثمانية في إخماد ثورة الموره في اليونان حيث أن محمد علي باشا تمكن قبل ذلك من إخضاع شبه جزيرة العرب للعثمانيين.

فأرسل محمد علي أبنه ابراهيم باشا على رأس القوات المصرية متجهاً إلى المورة وتم فعلا القضاء على الثورة وهناك وأستولى على تربيوليتزا في عام ١٢٤١/١٨٢٥.

وقدمت هذه الواقعة فرصة ذهبية لكي يتخلص السطلان محمود الثاني من فرقة الإنكشارية، بعد أن تحصن بنفسه بإصدار فتوى شرعية بالتخلص من الإنكشارية باعتبارها فئة ضالة، ولم يعترض أحد على هذه الخطوة أطلقوا عليها (الواقعة الخيرية). لما توقعوا من خير بعدها.

بعد ذلك عرف الإصلاح طريقه إلى الجيش العثماني فقدم الضباط الإنجليز لتدريب القوات البحرية والضباط الألمان لتدريب القوات البرية.

ثم أنشأ السلطان أكاديمية للعوم العسكرية وعدداً من المدارس العسكرية العالية والثانوية والإعدادية ثم (نظارة المكاتب العسكرية) كجهاز تنظيمي خاص.

كذلك انشأ السلطان مدرسة للطب في استانبول. كما أرسل البعثات التعليمية إلى أنحاء أوربا.

وأنشأ نظاماً حديثاً للبريد ونظم الشرطة في البلاد. وأصدر نشرات طبية لتنوير الأهالي بالأمراض المعدية وطرق الوقاية منها.

ومنع مصادرات الأموال من الموظفين وأملاكهم. وصارت الدولة العثمانية ذات صبغة علمانية. وسوى في الحقوق السياسية بين جميع الطوائف إلا أن التعليمات غير العسكرية تعذر على السلطان تنفيذها عند التطبيق.

ثم بدأت المعارضة ضد الحركات الإصلاحية، تطل برأسها من جديد عندما أصدر السلطان أوامره بارتداء الزي الأوربي. وأعلن الشعب سخطه على السلطان.

كذلك ظهر عند حركة إصلاح الجيش أنه لكى يكتب لهذا المشروع النجاح أن يكون شاملاً جميع الطوائف بحيث يضم كل جوانب المجتمع في الدولة العثمانية.

ثم تبين أن تمادى النفوذ الإنجليزي في مطالبة لحركة الإصلاح هذه تتعارض في حقيقة الأمر مع الأوضاع القائمة في الدولة من حيث نظم الحكم والإدارية فالدولة العثمانية هي المسيطرة على الشعب وهي التي تنفرد بالسلطة.

وفي عام ١٢٥٥/١٨٣٩ تتوفى السلطان محمود الثاني وتولى العرش خلفا له عبد المجيد (١٢٥٥-١٨٣٥/١٢٧٧-١٨٦٠)

وفي عهد السلطان عبد المجيد تولى خسروا باشا منصب الصدر الأعظم، وتولى رشيد منصب وزارة الخارجية، ورشيد باشا هو الذي وضع مسودة أول منشورات الإصلاحا لكبرى (التنظيمات) وهو منشور الكلخانة.

وهذا المنشور كفل تأمين شعوب الدول العثمانية على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم دون تفرقة بين جنس أو دين ووضع نظام للضرائف وطريقة التحصيل والخدمة العسكرية وتحديد مدتها، مع إنشاء إدارة مركزية تشرف على هذه الإدارة في أنحاء الدولة العثمانية جميعها.

وظهر عن تطبيق صعوبات، فكان هناك اختلافات بين العمل والتطبيق. وتحت مقابل تنفيذ الإصلاحات في الدولة العثانية تسوية النزاع بين والى مصر (محمد علي باشا) والدولة العثمانية (١٨٣٩-١٨٤١) على أساس المحافظة على كيان الدولة العثمانية.

وقد وافقت حركة الإصلاح هذه حصوى رجال الدولة من أهل الإستنارة مع الحفاظ على الأحكام الشرعية كما هي. ورفض العلماء المسلمون شهادة الذمى على المسلم، ولكت مصطفى رشيد باشا استطاع بذكائه أن يمرر الحركة الإصلاحية حتى لا تصاب الحركة بالشلل فأقترح تهذا النص وهو " إلا أنه يجوز للحكومة أن تتخذ ما تراه من التدابير الإدارية في أمثال هذه الحالات إذا صدر أمر سلطاني بذلك، لأن الأوامر السلطانية المبينة على المصلحة العامة، تكون مطاع وواجبة التنفيذ".

وصارت تصدر الأنظمة والقوانين من رجال التنظيمات على شكل أوامر سلطانية يأمر بها ولى الأمر.

كما أصدرت حركة التنظيمات العثمانية عقب حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦) التي حارت روسيا القضاء على الدولة العثمانية فيها. وعارضتها بريطانيا وفرنسا لان مصالحهما تتعارض مع ضياع الدولة العثمانية، إذ أنها سوف تعطى الفرصة لروسيا للظهور وسعة النفوذ في منطقة الشرق الأوسط وقد يهدد ذلك خطط بريطانيا في تلك المنطقة.

ولكنها مقابل وقوفها مع الدولة العثمانية كلفت الدولة العثمانية بإصدار منشور التنظيمات الخيرية، وقد أكد هذا المنشور ما جاء به منشور الكلخانة عام ١٨٣٩ من إصلاح الشؤون المالية ومحاربة الرشوة والفساد في الجهاز الإداري للدولة.

وقد أعلن مندوي الدولة معاهدة الصلح في بارس (٣٠مارس ١٨٥٦) تمسك هذه الدولة بالمحافظة على كيان الدولة العثمانية وحق مشاركتها في الحقوق الأوروبية العامة، مع التعهد باستقلال الدولة والمحافظة على سلامتها.

وهكذا ضمنت انجلترا سلامة الدولة العثمانية ولكنها اشترطت عليها تنفيذ الإصلاحات وبالأخص مساواة الذميين بأهل البلاد الأصليين. وحق ممارستها سلطات الحكم والإدارة.

وقد نتج عن هذه الشروط إضعاف سلطة الدولة بتقيدها إزاء توظيف بعض الذميين في مناصب الدولة، مما قد يوجد تيارات متعارضة في البلاد قد يترتيب عليها تفكك قوى الدولة.

وقد تبين تعذر تنفيذ هذه الإصلاحات عند التطبيق العملي لها، ولم يساعد على تقوية الدولة وبسط نفوذها بل العكس هو الذي حدث، فكان هدف الدول الأوروبية ومصلحتها لم يكن يهدف حقيقة لحركة إصلاح الدولة العثمانية. بل كان الغرض هو تنفيذ وتمرير مصالحها في أنحاء الممتلكات العثمانية .

السلطان عبد العزيز (١٢٧٨-١٢٩٣/١٨٦١-١٨٧٦)

وفي عهد السلطان عبد العزيز، تم إنشاء محكمة قضائية عليا (ديوان الأحكام العدلية ومجلس الدولة على النسق الفرنسي وذلك بالقانون الذي صدر في عام ١٨٦٤/١٢٨١ لتنظيم حكومة وكذا إنشاء مدارس لتعليم اللغات الأجنبية مثل اللغة الفرنسية.

إلا أن هذه الجهود لم تشبع نهم المنادين بالإصلاحات من البريطانيين الذين نادوا الدولة العثمانية نفسها من الوجود.

من الأمور المناهضة للحركة الإصلاحية في الدولة العثمانية أن الغالبية العظمى ويرون أنها دخيلة عليهم. ولا جدوى من الأخذ بها.

وهكذا لم تكن الظروف الاجتماعية، مناسبة للقيام بهذه الإصلاحات، حيث النظام لم يشمل كل نواحي الحياة. وإنما ناحية واحدة. فيقف عند التنفيذ حيث تتعارض بقية الجهات غير المستعدة لهذا التعبير الجديد.

هذا فضلا عن أن الخبراء والمستشارين الذين ندبوا لتنفيذ تلك الإصلاحات في البلاد العثمانية لم يكونوا من أهل الخبرة وذوى الكفاية حتى يمكنهم القيام بمهماتهم على الوجه الأكمل. وإنما هو نوع من التهريج الذي يهدف إلى نوع من الخداع للوصول إلى أهداف أخرى غير معلنة، كأن يكون الهدف الحقيقي هو عرقلة وتعطيل الإصلاح بل وهدمها كلية.

بل أن روسيا نفسها كثيراً ما عمدت إلى إفساد العلاقات بين الدولة ورجال الإصلاح كما أن روسيا أعلنت الحرب ضد الدولة العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨) وأنتهت الحرب بهزيمة العثمانيين وعقد معاهدة سان استيفانو في مارس ١٨٧٨ أدت إلى استقلال بلغاريا وامتداد نفوذ روسيا إلى البقان، فضلاً عن استيلاء روسيا على باطوم وارزن وقارص من الدولة العثمانية.

على أن حركة التنظيمات، لم تستوعب حقيقة الحضارة الأوروبية بل اكتفوا بالمظاهر الخارجية والشكلية بغير فهم لفلسفتها بعمق وتروى.

بل أكثر من ذلك فإن الغالبة من الشعب التركي رأت في حركة التنظيمات، تدخل من جانب الأوربيين بهدف محاولة القضاء على الدولة، لا إصلاحها ونهضتها.

ويبدو أن جرت محاولات أوبية لتقسيم أملاك الدولة العثمانية لولا أن تضارب المصالح بين الدول هو الذي أفضى إلى عدم تنفيذ تلك الفكرة. فمثلاً لم تكن ألمانيا لترضى بتقسيم الدولة العثمانية بأي حال من الأحوال.

وظلت الأحوال على ما هي عليه حتى قيام الحرب العالمية الأولى. على أنه منذ انعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٨٧/١٣٠٥ وسولسبرى يعمل على تقويص الدولة العثمانية وتوزيع أملاكها بين الدول الأوروبية.

بينما كانت الحركة القومية التركية تعمل على أن تمضى حركة الإصلاح على المبادئ الأوروبية في الدولة مع حرصها على منع الحكم الاستبدادي من الاستمرار .

ولذلك ظهرت أهدافها في إقامة حكم دستوري، مع بقاء السلطة العثمانية وتقويتها، حتى يمكنها السيطرة على القوميات الثائرة وإرضائها في نفس القوت مع الوقوف ضد اعتداءات الغرب ومنعها من تحقيق أهدافها.

ولكن هذه الحركة القومية التركية التي تمسكت بسيطرتها على ممتلكات الدولة العثمانية إصتدمت مع القوميات الاخرى مثل القومية العربية والأرمينية.

حركة تركيا الفتاة

قامت حركة تركيا الفتاة من الطبقة المتوسطة المثقفة للمجتمع العثماني، نادت بالحرية والدستور ومحاربة الإقطاع والتحرر من السيطرة الاجنبية.

وجعلت من أهدافها للوصول إلى ما تصبو إليه من حركة الإصلاح في المجتمع، تقييد السلطة الحاكمة المستبدة وإقامة حياة دستورية مع إقامة حكم مركزي في استانبول وفي الولايات التابعة للدولة.

بدأت هذه الحركة بتأسيس جمعية سرية قامت في عام ١٨٦٥/١٢٨٦ مكونة من ستة أفراد عرف من أعضائها نامق كمال، وأية الله بك، وعمدت هذه الحركة إلى الاستفادة من الحركات السابقة التي ظهرت في إيطاليا وبولندا ونمت هذه الحركة حتى بلغ عدد أعضائها ٢٤٥ عضواً ومن أعضاء هذه الحركة مراد وعبد الحميد وقد يربط الأعضاء بين هذه الحركة القومية التركية وحركة تركيا الفتاة.

كما أن مصطفى فاضل وهو من أسرة محمد علي في مصر، قد شارك في تركيا الفتاة.

وقد جمع هذه الحركة ضيقهم باستبداد السلطان عبد العزيز لميوله التسلطية في الحكم واستبداده وكراهيته للاتجاهات التحررية، وكذلك عمد أعضاء تلك الحركة إلى العيش خارج تركيا إما في باريس أو في لندن.

وفي عام ١٨٦٨/١٢٨٩ ظهرت أول جريدة تعبر عن الاتجاهات التحررية التركية، وهي "الحرية" صدر أول عدد لها في ١٨٦٨/٦/٢٩م. وظهرت في الجريدة مقالات تدعو إلى الحرية والديمقراطية.

وكثيراً ما وصلت أعداد من تلك الجرائد إلى تركيا نفسها.

وفي عهد السلطان عبد العزيز واجهت الدولة العثمانية مشاكل سياسية وأخرى مالية وظهرت الثورات في البلقان وأنفصلت بلغاريا والصرب عن الدولة العثمانية، وظهر العجز في ميزان الدولة نتيجة لإسراف السلطان عبد العزيز واقترض من بيوت المال في

لندن وباريس وبلغت الديون حوالي مائتي مليون جنيهاً إنجليزياً وكشفت الصحافة منذ اكتوبر ١٨٧٥ عن عجز ميزانية الدولة وتعذر تسديد الأقساط المستحقة ثم أعلن إفلاس الدولة.

وعندئذ قام مدحت باشا وجماعة وزراء وأصدروا فتوى بعزل السلطان عبد العزيز لعجزه عن القيام بشؤون الدولة. وفعلا تم عزل السلطان في اليوم التالي بصدور الفتوى، واعتلى عرش السلطنة ابن أخيه مراد باسم مراد الخامس، ولكن تبين أن مراد الخامس ليس مؤهلا لحكم البلاد، فأصدروا فتوى بعزله، لاختلال قواه العقلية. وفي ٣١ أغسطس عين أخوه الأصغر عبد الحميد سلطاناً باسم عبد الحميد الثاني بعد موافقته على فكرة الحكم الدستوري.

السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧/١٨٧٦-١٩٠٩)

قام السلطان عبد الحميد الثاني بتعيين مدحت باشا، في وظيفة الصدر الأعظم أعلن الدستور في ١٨٧٦/١٢/٢٣ الذي يقوم على أساس حكومة برلمانية، تستمد وجودها في الحكم من أساس ديمقراطي انتخابي وبرلمان مشكل من مجلس نواب ومجلس الشيوخ.

وفي ٥ فبراير عزل السلطان مدحت باشا من وظيفة نفاه خارج البلاد، مستنداً إلى مادة من الدستور تعطى الحق للسلطان بطرد من يثبت أنهم خطر على أمن الدولة.

تكون مجلس الشيوخ من خمسة وعشرين عضواً بالتعيين وتكون مجلس النواب من مائة وعشرين عضواً بالانتخاب وقد شارك نواب عن الشعب العربي في الولايات وبرز دور العرب في المناقشات البرلمانية.

ثم استدعى ثلاثة من النواب ليمثلوا امام المجلس لمواجهتهم باتهامات اسندت إليهم.

وعندئذ أسرع السلطان عبد الحميد بفض المجلس وعودة النواب إلى بلادهم، وقام السلطان بنفي وإبعاده البارزين من هؤلاء النواب، فلم تزد دورة المجلس عن نحو إحدى عشر شهراً ولم يدع المجلس للانعقاد بعد ذلك.

ولما هاجمت روسيا الدولة العثمانية وانتهت بعقد معاهدة سان استيفانوا عام يناير ١٨٧٨ أمر السلطان عبد الحميد بتعطيل أحكام الدستور .

وهكذا بدأ الطريق واضحاً أمام الجميع فإن السلطان عبد الحميد يرغب في أن يحكم البلاد على نمط أسلافه من الحكام السابقيين. ثم عهد السلطان إلى تشكيل شبكة من العملاء والجواسيس لمناهضة الأحرار في كل مكان من أنحاء الدولة. فضلاً عن العمل على الاستفادة من فكرة الجامعة الإسلامية فهي الفرصة التي تمهد للسلطان النفوذ والسيطرة على شؤون البلاد ويعاونه في ذلك مجتمع ديني يعلو على القوميات، والتأثير في العناصر العربية بانتهاج سياسة التودد والاهتمام بالمؤسسات الدينية والعلمية، وبذل الأموال

لإصلاح الحرمين الشريفين وزخرفة المساجد وتشكيل فرقة من العرب ضمن حرس السلطان

العثمانيون في الخليج العربي (خليج البصرة):

لم تمتد سيطرة الدولة العثمانية خلال العصر العثماني الأول على شبه الجزيرة العربية حيث لم تتمكن الحملات التي أرسلها السلطان سليم الأول عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠ وإنما اكتشفت بممارسة سيادة إسمية على قبال نجد وشمر، وكذلك لم تتمكن الدولة العثمانية من بسط سيطرتها على بعض مشيخات أو أمارات الخليج العربي . إذا طالما لقيت مقاومة، إما من القوى العربية بهذه المناطق، أو من القوى الأجنبية إبان العصر العثماني الثاني حيث ظهر ضعف الدولة العثمانية، وظهر الاستعمار الأوربي في المنطقة العربية. ومع ذلك فقد دأب العثمانيون على إدعاء أن لهم حقوق في كل شبه الجزيرة العربية، مع أنهم لم يتمكنوا من بسط سيطرتهم إلا على المناطق الساحلية لليمن، والكويت، وبغداد، والبصرة.

وفي عهد السلطان عبد الحميد، قامت نزاعات عائلية في إمارة الكويت وتولى حاكم الإمارة الشيخ مبارك، أحد أفراد العائلة الحاكمة، دون الرجوع إلى الدولة العثمانية وآثار بذلك حفيظة السلطان عبد الحميد الثاني، ومنعاً من تفاقم الأمور بالتدخل العسكري لعزله عن الإمارة، تدخل وإلى بغداد رجب باشا بعد اتصالات الشيخ مبارك وإغرائه بتقديم الهدايا له، وبعث للصدر الأعظم يهون من شأن ما حدث بإمارة الكويت.

فاستجاب العثمانيون لرأى وإلى بغداد، وأصدر السلطان عبد الحميد الثاني فرمانا عام ١٨٩٧ بتعيين الشيخ مبارك حاكما على إمارة الكويت بدرجة قائمقام، ووافق الشيخ مبارك على هذا التعيين لتجنب الدخول مع العثمانيين في مشاكل قد تثير له المتاعب وهو في غنى عنها.

ولم يكن الشيخ مبارك يرغب في مد نفوذ العثمانيين للإمارة حتى إنه حاول أن يجعل نفسه تحت الحماية البريطانية إلا أن بريطانيا لم تمكنه من ذلك، إذ أن بريطانيا لم تكن حتى ذلك الحين تبدى اهتماما بالكويت، خاصة بعد أن قبل مبارك الفرمان العثماني بتولية مبارك أميراً على الكويت بدرجة قائمقام.

على أنه حدث بعد ذلك ما دفع ببريطانيا إلى تغيير موقفها من إمارة الكويت وذلك حين تبين لبريطانيا عزم روسيا على بناء خطر حديدي من الساحل السوري إلى الخليج.

ففي عام ١٨٩٧/١٣١٥، ظهر أن القنصل الروسي في بغداد يعمل على بناء محطة للفحم في الخليج لحساب الدولة الروسية.

وقد أثار اهتمام روسيا ببناء محطة فحم في منطقة الخليج مخاوف بريطانيا، خاصة بعد ما تقدم الكونت فلادمير كابنيست في عام ١٨٩٨/١٣١٦ يلى السلطان عبد الحميد الثاني بمشروع بناء خط حديدي في ميناء طرابلس الشام، إلى ميناء الخليج العربي، مع امتداد فروع له إلى بغداد وخانفئين، فأحاله السلطان عبد الحميد إلى وزيره المختص لدراسته وتقديم تقرير. وقد أدركت بريطانيا أن هذا المشروع سيؤدي إلى ظهور الروس في منطقة الخليج ومنافسة بريطانيا في هذه المنطقة، وأن ذلك يضر بالمصالح البريطانية.

ولما وصلت البعثة الألمانية المكلفة بدراسة المشروع إلى الكويت قوبلت بجفاء بتحريض من بريطانيا وعادت البعثة دون أن تصل إلى نتيجة.

كما وقفت بريطانيا إلى جانب الشيخ مبارك لمقاومة المؤامرة العثمانية لإضعافه عسكرياً بمعاونة من عبد العزيز بن متعب آل الرشيد.

ولكن المؤامرة انتهت بالفشل بعد ظهور السفن الحربية البريطانية في الخليج للدفاع عن الكويت، في حالة تعرضها لخطر الهجوم عليها من قبل البحرية العثمانية، وأنسحبت القوى البحرية العثمانية عام ١٩٠١/١٣١٩ من الكويت، كما أنسحب الشيخ عبد العزيز عائداً إلى بلاده.

وفي عام ١٩٠٢/١٣٢٠ عاود العثمانيون محاولاتهم لما هجمة وتولية أحد أبناء إخوة مبارك المطالبين بالعرش الكويتي. وهو آل محمود الصباح، إلا أن الأسطول البريطاني تدخل وأفشل خطة العثمانيين مرة أخرى.

وفي عام ١٩٠٤/١٣٢١ سمحت الكويت بامتيازات لبريطانيا دون غيرها بإقامة مكاتب بريد لها في الكويت، ولم يجد نفعاً احتجاجاً العثمانيين ضد هذا القرار الكويتي في تلك المنطقة الحيوية بالنسبة لبريطانيا.

ولذلك بدأت بريطانيا في معارضة تنفيذ هذا المشروع إلى درجة أنها أعلنت أن الكويت ليست خاضعة للنفوذ العثماني ولم يتأت للعثمانيين بسط نفوذهم الفعلي على الكويت في يوم من الأيام، كما أنه لا توجد صلة فعلية بين الكويت والعثمانيين. وأن الكويت لا تدفع جزية سنوية للعثمانيين وليس للعثمانيين حامية عسكرية بها، وبالإضافة إلى ذلك فإن مد خطر حديدي إلى الكويت يضر بالمصالح البريطانية تماماً ثم قامت بريطانيا بتعزيز مركزها في الكويت تحت الحماية البريطانية وذلك في عام ١٨٩٩/١٣١٧.

على أن السلطان عبد الحميد الثاني لم ينس للأمير مبارك أمير الكويت بتخطية سلطة الدولة العثمانية، وذلك عندما تخلص من شقيقة الأمير محمد بالقتل ليخلو له تولى الحكم في الكويت بدلاً منه، فعمد العثمانيون إلى تحريض أمير حائل عبد العزيز بين متعب آل الرشيد ليمد سلطانه على الكويت، واستجاب الرشيد للفكرة التوسعية ناحية الكويت. والغالب أن هذا عجل بتحريك الأمير مبارك للارتباط مع البريطانيين بما يشبه الحماية.

ومن جهة أخرى فقد حاول العثمانيون مساندة أخو الشيخ مبارك وإيقاد شعلة الصراع العائلي لإضعاف نفوذ الشيخ مبارك وخلعه من الإمارة.

عملت بريطانيا على تقوية نفوذها في الكويت وعمدت إ لى مواجهة المشروع الألماني المدعم من العثمانيين الذي يجعل من الكويت نهاية لخط السكة الحديد المزمع إنشاؤه.

ثم واصل السلطان عبد الحميد سياسة مد خط حديد بغداد.

في عام ١٩٠٢/١٣٢٠ تقوم ببنائه شركة حديد الأناضول ثم عقد العثمانيون في ١٩٠٣/١٣٢١ إتفاقية ثانية لتأسيس خط حديد بغداد، لمد خط حديد فيما وراءه قونيه إلى بغداد، والبصرة، بإشراف مشترك للبنك الإمبراطوري العثماني. ومنحت شركة خط حديد بغداد حق الملاحة في نهري دجلة والفرات وشط العرب لنقل المواد اللازمة لبناء، وتشغيل الخذ الرئيسي وفروعه، ولكن عارضت بريطانيا هذا المشروع.

عاشت الدولة العثمانية في صراع بينها وبين بريطانيا وروسيا وغيرها من الدول الأوربية بسبب إقامة المشروعات الخاصة بإقامة خطوطة حديدة في ولاياتها، حتى استأثر رجال الإتحاد والترقي بالسلطة منذ عزل عبد الحميد في عام ١٩٠٩/١٣٢٧، فبدأت في عهدها الدولة العثمانية إلى تسوية خلافاتها بعقد اتفاقية مع بريطانيا في عام ١٩١٣/١٣٢٢ بخصوص بعض دول الخليج وخط السكة الحديد.

إلا أنه لم يتم التصديق على هاتين الإتفاقيتين حيث قامت الحرب العالمية الأولى، ودخلت الدولة العثمانية الحرب في الجانب المناوئ لبريطانيا وحلفائها.

كما أن سياسة السلطان عبد الحميد البعيدة عن النظام الديمقراطي واعتمادها المطلق على تقارير الجاسوسية أن صارت العفة والاستقامة والمعرفة وحسن الخدمة ليست من المؤهلات التي تصلح لتولي الوظائف أو الترقى. وإنما طريق آخر هو التملق واسترضاء أولى الأمر فتعقدت الأمور، وارتقى إلى المناصب الرئيسة في الدولة رجال غير أكفاء، وانتقلت العدوى إلى ولايات الدولة كذلك، نتج عن ذلك كله أن نشط الأحرار المقيمين في العواصم الأوروبية، وتحولت الحركات التحررية إلى حركات سرية تعمل في الخفاء،

فتأسست الخلايا السرية، فمثلاً تركيا الفتاة شكلت في عام ١٩٠٦ خلايا ثورية بين الضباط العاملين في تشكيلات الميدان الأمر الذي أدى إلى انتشار حركة تذمر بين أفراد الجيش خاصة وأن حركة الترقي سارت على أساس بعيد عن الكفاءة أو المقدرة العسكرية، ولم تنتظم رواتبهم.

وفي عام ١٩٠٦ ظهرت في صفوف الجيش في دمشق (جمعية الوطن والحرية) من بينهم الضابط مصطفى كمال. ثم ظهرت لها فروع في يافا والقدس ثم انتشرت في فروع لها في أنحاء اخرى كثيرة. ثم ظهرت " جمعية الحرية العثمانية".

رسم الضباط الأحرار خطة الثورة، للقيام بالثورة في ٣١ أغسطس ١٩٠٨.

السلطان عبد الحميد والجامعة الإسلامية

بدأت الدولة العثمانية في الضعف والتدهور منذ أواخر القرن الثامن عشر وبدأت الدول الأوروبية وكبار الساسة فيها يفكرون في مصيرها وتوزيع أملاكها فيما بينها وامتد هذا الاهتمام بالدولة العثمانية وبأملاكها إلى القرن التاسع عشر.

وكان بسبب الخوف من ظهور المنازعات بين الدول الكبرى أن تمسكت الحكومة البريطانية بمبدأ المحافظة على كيان الدولة العثمانية، ثم تخلت بريطانيا بعد ذلك عن هذا المبدأ وأصبح ممكناً ملء الفراغ الذي ينجم عن تقلص النفوذ العثماني وإنحساره عن تلك الممتلكات، بعدما حدث فعلاً من تقلص النفوذ العثماني في البلقان فاستقلت في نهاية القرن التاسع عشر دول: اليونان ورومانيا وبلغاريا والصرب والجبل الأسود. وذلك حيث استطاعت الدول الأوربية فعل ذلك في مؤتمر برلين ١٨٧٨م.

وكان من آثار مؤتمر برلين، زيادة اهتمام العثمانيين وخاصة السلطان عبد الحميد بالجامعة الإسلامية وبالتقارب مع ألمانيا لتستطيع الوقوف أمام مطامع الفرنسيين في تونس ومطامع الفرنسيين والإنجليز في مصر.

ودعا تفوق الألماني في استانبول انجلترا إلى أن تفكر جدياً في القضاء النهائي على الدولة العثمانية، بتأييد الفريق الأكبر من سكان الدولة العثمانية وهو العنصر العربي إذا وقف ذلك العنصر إلى جانب انجلترا ولكن انجلترا تنكرت بعد ذلك من وعودها للعرب وخذلتهم. بل ستصبح خيانتها للعرب بعد ذلك، حين تصرفت في فلسطين حيث أصدرت انجلترا، وعد بلفور في نوفمبر ١٩١٧ تعهدت فيه لليهود بإقامة وطن قومي في فلسطين.

وأما من حيث فكرة الجامعة الإسلامية فقد كان السلطان عبد الحميد الثاني القوة الحقيقية الدافعة لها وهدفه هو العمل على تماسك العالم الإسلامي بقيادة الدولة

العثمانية لمواجهة الهجمات الشرسة، من جانب الدول الأوروبية، ومن أطماع انجلترا وفرنسا.

وظهر الكثيرون ممن يؤيدون فكرة الجامعة أمثال جمال الدين الأفغاني. واتخذ السلطان عبد الحميد من إحياء الخلافة الإسلامية القديمة وسيلة لدعم فكرته وتهديد الدول الغربية.

ويكتشف السلطان عبد الحميد في مختتم القرن التاسع عشر، ومستهل القرن العشرين السياسة الرشيدة التي يستطيع، بوساطتها أن يحفظ الإمبراطورية العثمانية المتداعية من الإنهيار ويصون عقدها م الإنفراط، وذلك بالإتجاه إلى تقوية فكرة الجامعة الإسلامية ونشر شعار (يا مسلمي العالم إتحدوا).

وبلغت تنمية الشعور بالرابطة الإسلامية مداها وظهر الإحساس بالخطر الذي يهدد الشعوب الإسلامية أمام غول الاستعمار الغربي المتربص بها.

فيدعوها إلى التجمع حول تركيا، بوصفها أقوى الشعوب وأقدرها على قيادة المعركة ضد العدو المشترك.

كانت العاطفة الدينية غالبة مسيطرة، وكان الدين والوطنية توأمان متلازمان، وقد زاد من تعلق الشعب في مصر بالفكرة الإسلامية مهاجمة كرومر الدائمة للمسلمين، في تقاريره وفي بعض كتبه. قد هاجم الإسلام والمسلمين وصورة دينا رجعياً لا يصلح لقيام نظام اجتماعي براق.

كذلك ساعد على تقوية فكرة الجامعة الإسلامية مهاجمة الدول الأوروبية للدولة العثمانية باسم الدين، فذلك كله آثار شعور عطف الشعوب على تركيا والألتفاف حول الخلافة، وقدم الشعب للعثمانيين المال والرجال في كل حروبها ومن ذلك قول أحمد شوقي أمير الشعراء في قصيدته (ضجيج الضجيج) التي رفعها للسلطان عبد الحميد عام ١٩٠٤ يطلب منه تأديب الثأثرين، الذين أثاروا الاضطراب في روبوع الحجاز.

ضج الضجيج وضج البيت الحرام واستصرخت ربها في مكة الأمم

قد مسها في حماله الضر فاقض لها   خليفة الله، أنت السيد الحكم

ويقول حافظ ابراهيم في حرب طرابلس عام ١٩١٢

ألا إن شق العصا لمذمم وأن الذي ينبغي الفساد لآثم

ومن كان يأبى أن يولى إمامه   طواعية والاه والأنف راغم

ويقول عن قوة الاتراك العثمانيين وحسن بلائهم في الدفاع عن الإسلام بما يجعلهم أصحاب حق في الخلافة المسلمين ورعايتهم.

أسد الخلافة إن دبّ الضراء لها   عادى الثعالب أوضارى السراحين

صانوا محارمها بالبأس فأمتنعت   على المبيح وعافت خطته الهوّن

ثم يقول:

شدوا دعائمها من بعد ما اضطربت   وداركوها بتأييد وتمكين

أثارت تلك الحركات المؤيدة لفكرة الجامعة الإسلامية مخاوف الدول الكبرى، وخاصة انجلترا وفرنسا خوفا على ما صار تحت أيديهم من ممتلكات وثروات في العالم الإسلامي فعمدت الدولتان إلى مقاومة الجامعة الإسلامية بكل الوسائل الممكنة، وعمدت إلى محاولة تقطيع أوصاله الدولة العثمانية والانتقاص من هيبتها أمام الشعوب الإسلامية.

وكان احتلال فرنسا لتونس وتوسعهم في قلب القارة الإفريقية، وتهديدهم لمراكش، واحتلال الإنجليز لمصر، وتوطين دعائم نفوذهم على أطراف الجزيرة العربية وفي الهند والقضاء على الحركة المهدية في السودان.

وهكذا أمتد الاستعمار الأوروبي ليشمل العالم الأفريقي والآسيوي ولكن إلى حين.

ثم تطورت الأمور في الداخل والخارج وانتهت إلى اجتماع مجلسي المبعوثان والشيوخ في شكل جمعية وطنية في سان استفانو التي صارت مقر جيش التحرير.

وفي عام ١٩٠٩/١٣٢٧ قرر المجتعون بالإجماع خلع السلطان عبد الحميد الثاني بفتوى من شيخ الإسلام وتولية أخيه الأصغر وولى العهد محمد رشاد باسم السلطان محمد الخامس.

على أن السيطرة الفعلية على الحكم في تركيا منذ عام ١٩٠٩/١٣٣٧ حتى قيام الحرب العالمية الأولى لم تخرج من أيدي جمعية الاتحاد والترقي التركية.

وبسقوط السلطان عبد الحميد الثاني سقطت الخلافة من الناحية العملية. وأخذ الأتراك العثمانيون يتمسكون بأهداب مبادئ أخرى كالفكرة الطورانية التي ترمى إلى أحياء لغة الترك وتقاليدهم التركية الصميمة.

فأنقسمت الدولة إلى عنصريها الأساسيين العنصر التركي والعنصر العربي، وربما كان ممكناً التعاون بين العنصرين لو أن الحكومة التركية استطاعت تحقيق المساواة الكاملة بين العنصرين، ولكن الأتراك أصروا على ضرورة تفوقهم في الوقت الذي وجد فيه العنصر العربي بتفوقه الثقافي والحضاري وتراثه الأدبي وماضيه عدم وجود أي مبرر لتفوق العنصر التركي.

لقد فشل العنصر التركي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في ميدان السياسة والحرب.

وفشل في ضم أكثر العنصرين عدداً أعرقهما لغة وتراثاً، فكانت النتيجة انقسام الدولة العثمانية النهائي إلى عنصرها العربي، والتركي عند أول صدمة لاقتها، وهي الحرب الكبرى الأولى.

فثار العنصر العربي مطالبا بالحرية والاستقلال وعملت الأحداث التي جاءت خلال هذه الحرب وبعدها كما عمل إيمانه بعروبته وفخره بماضيه ولغته وإيمانه بمستقبله على تمكنه من تقرير مصيره.

الأطماع الأوربية في مصر وبلاد المغرب العربي

ونتيجة لمطامع الإنجليز والفرنسيين في مصر دبرت السياسة الاستعمارية الأوربية وضع يدها ليس على مصر وحدها بل على تونس ومراكش وإيران وغيرها كثير.

ففي عام ١٨٧٦/١٢٩٣ زادت قبضة أوربا قوة على مصر فأنشئت لجنة مراقبة ثنائية يقوم عليها إنجليزي وفرنسي وقدرت هذه اللجنة مبالغ تدفعها مصر سداداً لديونها التي نتجت عن مشروعات حفر قناة السويس، ففي عام ١٨٥٤/١٢١٧١ احتال فرديناند دي ليسبس على الخديوي سعيد وحصل منه على الإذن بحفر قناة السويس {أول من فكر بهذا المشروع الخليفة العباسي هارون الرشيد} وتمكن هذا الثعلب الماكر من أن يجعل مصر تتحمل كل تكاليف القناة وأن يحرمها من كل ميزاتها.

وأسرع سماسرة أوربا يزينون للولاة الأستدانة فأسرفوا فيها عن قلة نظر، وسؤ تقدير وقلة الإحساس الحقيقي والصادق نحو مصر. حتى انتهى الأمر باحتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢/١٢٠٠م.

وأول ما فعل الإنجليز تسريح جيش مصر وإخلاء السودان، ثم إعادة فتحه ومقاسمة مصضر فيه بنسبة النصف والحقيقة أنها احتلته مثلما احتلت مصر ثم تقاسمت كل من إنجلترا وفرنسا بحيث تنفرد إنجلترا بمصر وفرنسا بمراكش وهو ما عرف بالأتفاق الودي.

بدأت فرنسا بمشروع حفر قناة السويس من الخديوي سعيد، وقبل أن تصل موافقة تركيا، شرعت قناة السويس للبدء في العمل .

ثم أخذ الإنجليز إلى الإسراع هم أيضاً في تنفيذ مشروع مد خط سكة حديد من الإسكندرية إلى السويس وبدأت الدولتان إنجلترا وفرنسا تتقاربان، وأنتهت أيام الخديوي سعيد في عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م وخلفه الخديوي إسماعيل على العرش.

وفي أول أيام اسماعيل، لم يكن مقرا وضع شركة القناة وإنما أنكرها لما لها من سلطان واسع في البلاد واستطاع اسماعيل أن يعدل فرمان ١٨٥٦/١٢٧٣ ويعيد إلى مصر ملكية الترعة التي تمتد من النيل إلى بحيرة التمساح. وكذا فرعيها الذاهبين إلى السويس، وبور سعيد.

كما أصدر بعد تولية العرش بشهور قليلة أمراً يحرم السخرة في العمل، في قناة السويس أو في غيرها قال فيه "قضت إرادتنا باتباع الأحوال المرعية قديماً في قضاء الأعمال العامة والخاصة المعتاد إجراؤها في كل عام في مصلحة رى الأراضي، وباستخدام العمال الذين ينبغي تشغيلهم في سائر الأعمال والعمارات الإميرية بالأجرة المقررة بين الناس، أو إجراء تلك الاعمال بطريق المقاولة. وقصارى القول تقضي رغبتنا السامية بعدم استخدام فرد واحد من الناس في شيء من الأعمال الأميرية والخارجية بعد ذلك على سبيل السخرة فلينفذ أمرنا هذا على الوجه المذكور".

ثم إن نابليون الثالث إمبراطور فرنسا عرض نفسه ليكون حكما بين مصر وشركة القناة وقبلت مصر ذلك وانتهت بالأمر بإبطال حق الشركة في مطالبة الحكومة المصرية بتقديم العمال المصريين، دفع مبلغ مالي قدره ٣٨ مليون فرنك كتعويض للشركة مقابل إلغاء نظام السخرة.

ثم صدرت إتفاقية ١٨٦٦/١٢٨٣م التي تجدد الشروط النهائية التي صدق عليها الباب العالي ومن أهمها إلغاء المادة الأولى التي تنص على استخدام العمال المصريين في حفر قناة السويس.

ثم صدرت بعد ذلك اتفاقية ١٨٨٨/١٣٠٦م الخاصة بضمان حرية استعمال قناة السويس البحرية (أن رؤساء الدول الآتية: بريطانيا العظمى والنمسا والمجر وأسبانيا وتركيا)[١٣].

---

[١٣] عقدت تركيا نيابة عن مصر هذه الإتفاقية مع الدول الأوربية إذ أن مصر كانت تابعة للدولة العثمانية في ذلك الوقت وقد استقلت مصر عن الدولة العثمانية في عام

رغبة منهم في إبرام اتفاق فيما بينهم خاصة بوضع نظام نهائي بضمان حرية جميع الدول في استعمال قناة السويس في كل وقت وفي تكميل حرية المرور في القناة المذكورة المقرر بمقتضى الفرمان الصادر من الباب العالي بتاريخ ٢٢-٢-١٨٦٦م ٢-١١-١٢٨٢ والمؤيد للشروط التي منحها سمو الخديو قد عينوا ممثلين لهم المذكورين بعد.

مادة (١) تظل قناة السويس البحرية بصفة دائمة حرة ومفتوحة، وفي زمن السلم كما في زمن الحرب، لجميع السفن التجارية والحربية بدون تمييز بين جنسياتها، وبناء على ذلك اتفقت الدول العظمى المتعاقدة على عدم إلحاق أي مساس بحرية استعمال القناة سواء في زمن السلم أو في زمن الحرب. ولن تكون القناة خاضعة مطلقاً لاستعمال حق الحصار البحري.

وهذه المادة هي أهم مواد اتفاقية عام ١٨٦٦/١٢٨٣ .

ثم عقدت اتفاقية القسطنطينية ١٨٨٨/١٣٠٦ وهي التي حددت الوضع النهائي للقناة وأكدت سيادة مصر عليها حيث نصت على الآتي:

مادة (٩) " تتخذ الحكومة المصرية، في حدود سلطانها المستمد من الفرمانات والشروط المقررة في المعاهدة الحالية التدابير الضرورية لضمان تنفيذ المعاهدة وفي حالة عدم توفر الوسائل الكافية لدى الحكومة المصرية، يجب عليها أن تستعين بحكومة الدولة العثمانية التي يكون عليها اتخاذ التدابير اللازمة لإجابة هذا النداء، وإبلاغ ذلك إلى الدول الموقعة على تصريح لندن المؤرخ ١٧/١٣٠٣-٣-١٨٨٥ م وعند اللزم تتشاور معها في هذا الصدد.

ولا تتعارض أحكام المواد ٤، ٥، ٧، ٨ مع التدابير التي قد يرى عظمة السلطان وسمو الخديو اتخاذها في حدود الفرمانات المخولة ليضمنا بوساطة قواتهما، وفي حدود

١٣٢٢/١٩١٤ وحلت محل تركيا في الحقوق والإلتزامات المقررة في تلك الإتفاقية وذلك طبقاً لقواعد التوارث الدولي في القانون الدولي.

الفرمانات الممنوحة للدفاع عن مصر وحماية الأمن العام الخديو ضرورة استعمال الحقوق الاستثنائية بهذه المادة.

وفي عام ١٩٣٩/٣١٥٨ قامت الحرب العالمية الثانية، فأضطربت الأمور، وتدخلت بريطانيا تدخلاً مباشراً، لحماية القناة، باعتبارها نقطة ذات أهمية حربية قصوى، لجيوشها وجيوش الحلفاء معها، فأقامت التحصينات وحشدت قواتها ورابطت بسفن حربية داخل مجرى القناة في البحيرات المرة وخالفت بذلك نص معاهدة ١٨٨٨٨/١٣٠٦.

وبعد انتهاء الحرب عقد مؤتمر سان فرانسسكو في عام ١٩٤٥/١٣٦٥ ضم الدول التي أنضمت للحلفاء بإعلان الحرب على دول المحور. وكان الغرض منه وضع ميثاق دولي يحقق التعاون الدولي وصيانة السلام وقد ظهر تناقض واضح بين ميثاق ١٩٤٥/١٣٦٥ واحكام أتفاقية عام ١٨٨٨م إذ أن معاهدة ١٨٨٨/١٣٠٦ تعطى لمصر حق غلق القناة في وجه الدول المعادية بينما ميثاق سان فرنسسكو لا يعطيها هذا الحق.

وفي عام ١٩٤٦/١٣٦٦ استقر رأى الجمعية العمومية للأمم المتحدة أنه " يجب تسحب بغير إبطاء القوات المرابطة في أراضي الأعضاء بغير رضائها الصادر عن حرية وفي صورة علنية تشمله معاهدات وإتفاقات متلائمة مع أحكام الميثاق وغير ومتناقضة لاتفاقات دولية).

وقامت مفاوضات بين مصر وبريطانيا أعوام ١٩٤٦، ١٩٤٧، ١٩٥٠، ١٩٥١. ثم استمر الوضع على ما هو عليه حتى قيام ثورة ١٩٥٢/١٣٧٢ التي أعلنت أن أهم أهدافها تحرير مصر من ربقة الاستعمار، والعمل على خلق وعي قومي عربي ناضج يستطيع مواجهة الاستعمار بكل أشكاله.

وانتهت تلك المفاوضات بين مصر وبريطانيا إلى اتفاق عام ١٩٥٤/١٣٧٤، وبمتقضى هذا الاتفاق خرج آخر جندي بريطاني من مصر في عام ١٣٧٦ /١٩٥٦.

وقد جاء في هذه المادة الثامنة من هذه الاتفاقية أن قناة السويس جزء لا يتجزأ من مصر وأن كلا من مصر وبريطانيا يتمسكان باتفاقية القسطنطينية التي تضمن حرية الملاحة والموقعة في عام ١٣٠٦/١٨٨٨.

تأميم قناة السويس:

ثم رأت قيادة الثورة بزعامة جمال عبد الناصر، أن تأميم مصر لشركة قناة السويس أمراً ضرورياً لسلامة الجهاز العسكري والاقتصادي والسياسي لمصر. بل أن التأميم لشركة القناة هو الوسيلة لتقوية الكيان الاستراتيجي للدولة على جميع المستويات داخلياً وخارجياً.

ولخطورة ما ستقدم عليه مصر بحركة التأميم فقد تمت خطوة التأميم لشركة قناة السويس بسرية تامة وقد نجحت مصر بزعامة قائد الثورة جمال عبد الناصر بالقيام بهذا الدورة بصورة فاقت حد التصور عند قادة الغرب وكان قرار التأميم مفاجاة للجميع بغير استثناء إن قرار تأميم قناة السويس فقت خلفه تؤيده الأمة العربية، جميعها من المغرب العربي في أقصى الغرب الإسلامي إلى العراق عند الخليج العربي.

وكان هذا التأييد الإجماي أعظم ما حققه قرار التأميم، لقناة السويس من توحيد لكلمة العرب ضد جمال عبد الناصر بهذا القرار المثل الأعلى في الجرأة في الحق والدفاع عن الحرية.

لقد أنحسر الاستعمال الغربي وأنسحب من كل البلاد العربية، كما أنسحب من مصر من قبل ومن بلدان افريقية وآسيا ولم يعد له مكان بعد ذلك في الشرق.

وهكذا نهضت القومية العربية لتظهر كقوة شعبية ، استطاعت أن تواجه الاستعمار الأوروبي، وحلت بذلك محل الدولة العثمانية المنهارة.

أسباب ضعف الدولة العثمانية وتفككها

على الرغم من أن العرب والعثمانيين عاشوا معاً في إمبراطورية واحدة من النصف الأول للقرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي إلى النصف من القرن الرابع عشر الهجري/ النصف الأول من القرن العشرين، فإن أحداً منهم لم يعرف الآخر معرفة صحيحة.

لأن العربي لا يأتلف مع غيره إلا على أساس العروبة، وعادة لا يقبل الامتزاج بجنس آخر بسهولة خاصة إذا كان ذلك سيؤدي إلى ضياع لغته وشخصيته العربيتين ، ومهما بلغ من ضعف أمم العرب في بعض العصور فإنها لا تفرط أبداً في عروبتها أو لغتها. وهي عندما تشعر أن عروبتها أو لغتها مهددتان تنكمش على نفسها دفاعاً عن كيانها وترفض الامتزاج أو التعاون.

حدث هذا عندما خضع العرب للترك وعندما دخل العرب تحت دول الاستعمار. وفيما يتصل بالأتراك فإن كلا من الشعب العربي والتركي أراد أن يحتفظ بكيانه ويذيب الآخر في نفس الكيان فلم يتم لأحدهما الوصول إلى ما يريد، فتعذر الالتقاء.

لقد اعتمد العرب على أن غير العرب يهتمون بلغة العرب لأنها لغة القرآن فهم يقبلون عليها ويتعملونها مما جعل العرب تضعف همتهم غالباً في تعلم لغة الآخرين.

كما أن الأتراك رأوا في العرب الضعف والتفرق فنظروا إليهم من على فلم يدرسوا لغتهم. ومع ذلك تعلم ودرس بعضهم الإسلام بلغتهم التركية وحفظوا من القرآن ما يعينهم على القيام بفريضة الصلاة كما ترجمت الآيات القرآنية إلى التركية.

وكذلك تعمق كثير منهم في اللغة العربية حتى أنهم صدرت لهم مؤلفات باللغة العربية بدرجة متفوقة مثل أبي الخير أحمد بن مصلح الدين مصطفى بكري زاده المتوفى ١٥٣١/٩٦٨ ، وعلى دده بن مصطفى علاء الدين البسنوى المتوفى عام ٥١٠٠٧، /١٥٩٨م، ومصطفى بن عبد الله كاتب حلبي المعروف بحاجى خليفة توفى عام ١٦٥٨/١٠٨٦م.

على أن بعض الفئات التي خدمت الإدارة التركية من غير العثمانيين الذين لم يدخل الإسلام في قلوبهم ولم يخلصوا لأى من العرب أو الأتراك العثمانيين، ولم يكونوا على درجة من الوفاء والإخلاص، هم الذين ساعدوا على إيجاد نوع من عدم الالتحام أو الاندماج بين العرب والعثمانيين.

كما ساعد على ذلك بعض الأسر الحاكمة في أنحاء العالم العربي بقصد الاستمرار في الاحتفاظ بمكاسبهم طالما أن كلا من العرب والعثمانيين، سيظلون هم حلقة الوصل بينهم. ولذلك فقد ظل كل من العرب والعثمانيين يجهلون بعضهم ولا يفهم أحد منهم الآخر.

كما أن الحروب المستمرة التي ظلت متقدة في جميع الميادين من الغرب الأوروبي والبلقان والجبهة الشمالية في روسيا وبلاد القرم، ومواجهة الإيرانيين في الجبهة الشرقية. فرضت على العثمانيين جهداً شاقاً يفوق طاقة البشر وفقدوا خلالها دماءهم وأرواحهم، وهذا غير ما قاموا به في بلاد المغرب العربي والعمل على حمايته من الوقوع في أيدي الأسبان.

وكما تحمل العرب مشاكل الحروب التي خاضها العثمانيون بفرض الضرائب الكثيرة عليهم من جانبهم، إلا أن الشعب التركي العثماني تحمل هو أيضاً بنفس ما تحمله العرب من آلام وتبعات جسام وربما أكثر.

لقد كان فساد أولئك الحكام الأقطاعيين المحليين وتعاونهم مع رجال الدولة في العدوان على رعاياهم وهو الذي أسرع بالدولة العثمانية إلى الفساد وهبط بالمستوى العام للدولة العثمانية وأهلها هبوطاً شديداً.

وقد بذل آل كبريلى الذين تولوا حكم البلاد لإنقاذ الدولة، الكثير حتى تمكنوا من إعادة الدولة إلى أن تواجه مشاكلها.

لولا أن السلاطين العثمانيين لم يستوعبوا التغيرات التي حدثت في الدول الأوروبية والتقدم العلمي والدولة مستمرة في حروبها دون انقطاع حتى أنهكت قواها في تلك الحروب وفقدت حيويتها حتى حولتها من دولة كبرى إلى دولة فقيرة.

على أن الدولة لم يكن يشاركها شعوبها المحكومة مشاركة فعالة في شؤون تيسير أمور الدولة مما أوجد فروقاً هائلة بين ما يحسه الشعب من عبء تلك الحروب الدائرة بدون عائد مجز فضلاً عن التضحية بالأموال وخيرة أبناء الشعب.

وظل حكام الدولة العثمانية يسيرون على نهجهم منفصلين عن شعوبهم فزادات متاعبهم.

وبدأت الدولة في التخلي عن ممتلكاتها بسبب ما لحقها من ضعف، فتخلت الدولة عن شعب التتر إلى أن بسطت روسيا سلطانها عليه، وهو شعب مسلم وكانوا يشغلون مساحات شاسعة تمتد من بولندا حتى بحر قزوين.

كما تنازلت الدولة العثمانية لروسيا عن ولايات كبيرة في شمال البلقان، وضاعت شبه جزيرة القرم.

وهكذا بدأت تصفية الدولة العثمانية. وكذلك فعلت الدول الأوروبية وخاصة انجلترا وفرنسا بالدول العربية من بسط سلطانهم عليها والاستيلاء على ثرواتها، وإذلال شعوبها.

لقد دافع العثمانيون دفاعاً مجيداً لرفع راية الإسلام قروناً كثيرة ويذلوا في سبيل ذلك المهج والأرواح لقد اعتمد العثمانيون على القوة العسكرية.

ولو انهم تعمقوا في روح الدين الإسلامي لما تخلوا عن الشعوب الإسلامية التي حكموها ولم يستمعوا إلى مشاكلهم، ولما تصدع البناء كما حدث.

ووقع الانفصال بين الشعوب الإسلامية والسلاطين وعساكرهم فانهارت الدولة وتفككت أوصالها.

الفصل السادس

حضارة الدولة العثمانية

الخلافة:

سار العثمانيون منذ أول عهدهم بمبدأ أن السلطان هو رئيس الجهاز السياسي والعسكري والمهيمن عليه، فقد بدأ الأمراء العثمانيون منذ أول عهدهم إقطاعيون يتبعون السلاجقة من سلاطين قونيه.

ثم جاء أورخان الثاني الملقب بالغازي، وعين أخاه علاء الدين وزيراً له بناء على طلب من علاء الدين نفسه، وتولى منصب الوزير، فقام بتنظيم الجيش، وضربت السكة للعثمانيين باسم أورخان الثاني بدلا من سكة السلاجقة، وضربت من الذب والفضة والنحاس.

كما وضعت القوانين التي تخدم الدولة فعلاء الدين هو أول وزير في الدولة العثمانية، عمل على تنظيم النقود واللباس والجيش، وأمر بأن يخطب للسلطان بأسمه على المنابر. كما أن السلطان بايزيد الأول حصل على لقب السلطان من الخليفة العباسي في القاهرة في عصر سلاطين المماليك باعتبارها حماة الاسلام والمدافعين عنه وفي عهد السلطان محمد الفاتح لقب سلطان البرين والبحرين. وذلك بعد أن تم للعثمانيين فتح القسطنطينية على يديه. أما صافي محصول الضرائب. فيوضع في بيت المال (خزانة الأبراج السبعة) (يدي قوله). وقد بلغت ميزان الدولة في عهد السلطان محمد الفاتح أربعة ملايين (دوكة). وبلغ مقدارها في حوالي منتصف القرن العاشر / السادس عشر الميلادي خمسة عشر مليون دوكه، يخصص لخزانة السلطان منها مليونين كل عام.

وقد كلفت خزانة الدولة بالقيام بمطالب صعبة في فترات الأزمات العامة.

كما أن الإنكشارية كثيراً ما نالها الحظ الأوفر من خزانة المال. كما أن السلاطين أسند إليهم إنشاء المباني العامة وعلى نطاق واسع.

والسلطان محمد الفاتح هو الذي جعل من الدولة العثمانية دولة عظمى بل هي أقوى الدول الكبرى في القرن الخامس عشر ووحدها أرضاً وشعباً حتى صارت كتلة متماسكة تمتد من أعالي نهر الفرات إلى الأدرياتي، ومن البحر الأبيض إلى نهر الدانوب والقرم وأزال بقايا الدول التي في آسيا الصغرى أو تلك التي ناوءت العثمانيين في البلقان.

ثم بعد ذلك استولى على أجمل وأعظم المدن الأوربية وذات تاريخ عظيم. وجعلها عاصمة لدولة آل عثمان.

ولم يعد بعد هذا الفتح مجال للآخرين من إغريق أو بنادقة أو لجنوه أو للصرب قوة أو ذكرى البلقان مع آل عثمان.

إلى أن جاء القرن التاسع الهجري أوائل القرن إلى خمس عشر الميلادي فمهدت فتوحات السلطان محمد الثاني لفتوحات أعظم في بلاد الشرق وفي قلب أوربا نفسها.

رتب محمد الفاتح الحكومة الجديدة للدولة العثمانية العظمى واستفاد من كل الظروف المحيطة به، واستهلم كل الحضارات التي توارثها العثمانيون فهو سلطان مسلم يحكم دولة واسعة الأطراف إسلامية في كل شيء.

لقد صارت الدولة العثمانية تشمل شرق البحر المتوسط وحضارته التي أمتزجت فيها روح الشرق وروح الغرب واجتمعت فيها نظم سياسية مختلفة وقوانين وعادات متباينة، جمعت هذه المناطق بين المسيحية والإسلام.

وقد جعلت الدولة العثمانية مراعاة لهذه الحقائق صرحاً شامخاً يتناسب مع عظمة المكان والسكان.

اهتمت الدولة في عهد محمد الفاتح بنشر الطمأنينة والسلام التركي العثماني الإسلامي في الدولة الواسعة التي جمعت عناصر متنوعة من أناس يختلفون، في الجنس واللغة والدين والعادات.

فبجانب الأتراك والعرب، عمود الدولة الفقري، يوجد الإغريق الصقالبة والبلغار والألبان. كما يوجد الأرثوذكسي والكاثوليك واليهود. عاش هؤلاء جميعاً قبل الحكم

العثماني حياة مضطربة وفوضى لا يعرفون للأمن طعماً ونسوا من زمن بعيد كل شيء عن الطمأنينة والاستقرار .

لقد فرض المسيحيون عليهم في أسبانيا وفي غيرها من بلاد أوربا، أن يختاروا بين الإبادة والطرد، و الدخول في المسيحية. فهاجر كثيرون هرباً من هذا الاضطهاد الدينى إلى الدولة العثمانية، ولقد لقوا من ترحيب الدولة العثمانية بهم الكثير، وشجعوهم على الإقامة في القسطنطينية ، وسالونيك وفي غيرها من الأماكن الخاصة لسلطان الدولة العثمانية، وتمكن هؤلاء اليهود اللاجئون في ظل ظروف مناسبة لهم للغاية، أن يباشروا أعمال التجارة حتى راجت أحوالهم، وصاروا في أحسن حال.

لقد عمل السلطان محمد الفاتح على استقرار مركز السلطان لأنه عرف من تجارب التاريخ العثماني أنه على استقرار مركز السلطان يتوقف كل شيء في الدولة، تتوقف قوتها ونظمها.

لقد لحق الخلل والاضطراب بالدولة إذ ما برز المتنافسون على العرش وأوقدوا نيران الحرب الأهلية، ولم يخف عليه ما عانته الدولة من حروب أهلية كادت تؤدي بحياة الدولة في عهد سابق عليه، كما عرف بنفسه حالات الانقسام والتفرق في بلاد البلقان وما آلت إليه من ضعف واضمحلال فعمل على تجنب ذلك، أن يحدث في دولته.

فلم يكن قبل ذلك قانون يحدد من يلى العرش العثماني بعد وفاة السلطان. فوضع السلطان الفاتح سنة جديدة، هي أنه يحل للسلطان استعمال أقسى أنواع العنف في سبيل تطور الدولة "فإن المفكر الحكيم لا يدين أبدا من أن يستعمل وسائل غير عادية لإعادة ملكية أو لتأسيس جمهورية [١٤].

---

[١٤] جاء في كتاب الأمير، لميكيافلى، أن مولوس كان على حق عندما قتل أخاه ليرسى سلطته هو وليخلق الشروط اللازمة للدولة الرومانية القادمة". وميكيافى هذا لا يعالج شرعية الحكم بل يكتفي بالتصريح (بفوقيه) الدولة. و (فليعزم أمير ما على النصر وعلى الحفاظ على

حتى أن المبدأ الميكافلى الذي سارت عليه دول أوربا كلها وربما حتى في هذا العصر الحديث يرون أن الغاية تبررر الوسيلة[١٥] وهذا هو روح العصر الذي عاش فيه السلطان محمد الفاتح.

لقد رأى السلطان محمد أن مركزاً السلطان لا بد له من الاحترام بين رجال دولته ولذلك كره التبذل ولكنه أحب التبسط ولم يصاحب إلا الممتازين من الرجال يأنس بهم من رجال الدين والعلماء ورجال الفلك والأطباء.

أما رجال الدولة فيتصلون بالسلطان وقتما تكون هناك ضرورة لذلك.

وهذا السلوك من جانب السلطان يجعله مها بابينهم ومع ذلك فقد كان السلطان محمد الفاتح دائم الاتصال بهم في أوقات الحروب أو الاستعداد لها، فيتصل بالوزراء والقادة والجنود ويشرف بنفسه على كل شيء بل ويعمل على رفع روحهم المعنوية.

كما كان يشارك في مجالس الأدب والشعر ونقد الكتب.

وهو الذي نظم العلاقات الدبلوماسية والحلات في الدولة مستفيداً من الحياة الاجتماعية للإمبراطورية البيزنطية ثم لما أتسعت الدولة وزادت رقعتها ودخول عناصر أجنبية فيها وضع أساساً للتشريعات في القصر السلطاني.

كما جعل عنايته لتنظيم القوانين، واختار العلماء القادرين على القيام بهذه المهمة العظيمة، ووضع قانون نامه وهو يقول عن هذا القانون " هو قانون آبائي وأجدادي سيعمل به خلفائي من بعدي من جيل إلى جيل).

وهو الذي وضع أساس القوانين التي صدرت من السلاطين من قبله، ليكمله من يجئ بعده من القادة والزعماء بالمشاركة مع كبار العلماء.

الدولة آنئذ) تصبح الوسائل المستعملة مقدرة ونبيلة ومكرمة من الجميع. (كتاب الأمير فصل ١٨ص ٣٤٣).

[١٥] نفس المصدر.

وقانون نامه هذا مكون من ثلاثة أبواب تنظيم المناصب الوظيفية في الدولة وبعض التقاليد بالنسبة للتشريفات والاحتفالات وتوقيع العقوبات والمخالفات لتقويم غير الملتزمين.

ولقد ساعد الصدر الأعظم محمد القرماني السلطان في وضع دعائم الدولة ومناصب الوزراة والقضاء والمال أما الوزارة: بدأ منصب الوزير في درجة مستشار أول للسلطان، ثم تطور إلى أن أصبح بحكم تطور واتساع رقعة الدولة إلى منصب خطير تعاظمت أهميته معه تدريجياً.

ولقد رفع السلطان محمد الثاني منصب الوزير إلى أن جعله وصيا فعليا للدولة، ومطلق الصلاحية، حتى سيطر على فروع الإدارة كلها، وجعل له التصرف في شؤون الدولة عامة، بل وفي مسائل الحياة والموت، مطلق السلطة منفرداً بها.

وجعل للصدر الأعظم حمل الخاتم السلطاني رمزاً إلى ما يتمتع به من قوة ونفوذ.

وجعل منه كنائب للسلطان حق حفظ التشريعات الخاصة بالبلاط، فصار يحدد أياماً ثابتة في الأسبوع – مثله في ذلك مثل السلطان – يتقبل ولاء موظفي البلاط والدولة، ونظم الوزير ظهوره في الجماهير، بحيث يكون محاطاً بحاشية خاصة، وجعل قصر الوزير في "الباب العالي" يجمع رؤساء ورجال الدولة للمشاورة.

ولما تولى السلطان سليمان الحكم، خصص لإبراهيم باشا – وهو إبن ليوناني من برغه – جزءاً هاماً من سلطاته وظل إبراهيم يشغل منصب الصدر الأعظم لسنوات وهو مؤيد من السلطان بكل ثقته، ثم تعرض السلطان لمخاطر الدسائس والمؤامرات ضده، مع عدم ثبوت شيء.

وقد حطى واحد فقط بمثل ما حظى به إبراهيم هو محمد صوقلى وكان صقلبياً (سلافيا) من قرية صوقل في البوسنة، وقد تجنب محمد صوقلى – بذكائه وبعد نظره – الابتعاد عن المخاطر التي طالت ابراهيم باشا، ولم يهتم صوقلى بأكثر من جمع ثروة من المال، دون الاهتمام بالقوة والسلطان.

فقد قيل أن حكام الولايات كانوا يشترون مناصبهم كل عام بالهدايا وقد دفع باشا مصر ما يزيد على مائة ألف بندقي، أما المناصب الشاغرة بالوفاة فكان صوقلى يسندها لمن يدفع أكثر.

وأكثر من هذا أنه كان يقبل الهدايا والهبات من الدول الأجنبية. فقد سدد القيصر الألماني سرا ثلاثة أضعاف إحدى الهبات الحولية (ثلاثة آلاف طالير) بموجب معاهدة السلم الحديثة العهد، ليحتفظ الصدر الأعظم بالضعيفين لنفسه.

وفي عام ١٥٧٣/٩٨١ اشترت البندقية صلحاً لا يشرف إسمها لقاء خمسة عشر ألف دوكة.

ومن المؤكد أن هذا السلوك من جانب الصدر الأعظم كان له أسوأ الأثر في فروع الإدارة كلها. ثم قتل صوقلى في عام ١٥٧٩/٩٨٧. ثم ترتب على تكرار مقتل شاغل هذا المنصب إن ضعف شأنه.

أما عن السلطان محمد الثاني، فإنه عندما أطلق يد الصدر الأعظم في شؤون الدولة إلى درجة تقرب من المطلقة، عمد إلى الحد من سلطته بأن أجلس وزراء القبة بجانبه[١٦].

الديوان:

أتخذ العثمانيون مجلس عام، يضم جميع رؤساء الدوائر في الدولة، يجتمع لبحث القضايا الهامة، ولتقرير السلم أو الحرب، على ظهور الخيل – كما يفعل في البداوة– ثم تطور هذا النظام وتحول إلى مجلس وزراى طالما أسند السلطان محمد الثاني في أواخر عهده رئاسته إلى الصدر الأعظم.

وعادة ما شكل هذا المجلس أعضاء هم. قاضياً العسكر أحدهما من الأناضول والآخر من الروم إيلى. وبعد فتوحات سليم الأول أضيف إليها قاصد ثالث من أفريقية وأما باشا آسيا وباث أوربا وكذا الدفتردارين المسند إليهما الإدارة المالية في نصفي الإمبراطورية وكذا الإنكشارية بوصفهم ممثلي الجيش وأمير (قبودان باشا) وهذا المنصب ظهر عند ظهور

---

[١٦] وزراء القبة: هم أربعة وزراء زاد عددهم إلى ستة جلسوا مع الصدر الأعظم تحت سقف قبة، ولم يشركوه في السلطة عينهم السلطان محمد الثاني ليحد من سلطة الصدر الأعظم.

خير الدين بريروسا بوصفه ممثلاً للأسطول وصاحب التوقيع وهو القيم على خاتم السلطان.

وقد منح هؤلاء جميعهم ألقاباً محدده بدقة نص عليها محمد الفاتح في (قانون نامه) الذي أصدره محدداً كلا من هذه الرتب في دقة تامة، وحددت اجتماعات الديوان بأربع مرات في الأسبوع من السبت إلى الثلاثاء، في فناء السراية الثانية، تبدأ من الصباح وتنتهي عند الأصيل، ويتخللها فترات لتناول الطعام معاً. وسمح لمن يرغب من أفراد الرعية في عرض مشكلته على المجلس الذي عادة ما يحيلها إلى الجهة المختصة للبت فيها.

بدأ السلطان برئاسة الديوان ثم عهد إلى الصدر الأعظم بهذه المهمة بعد ذلك، على أنه اهتم باستقبال الأعضاء كل اسبوع استقبالاً رسمياً ليسمع منهم تقريراً عن أعمالهم ومقررات المجلس.

وجعل لكل من حاكمي آسيا وأوربا كرسى وصوت في الديوان ولقد عمد الباشوات العشرين حكام الولايات والعمال وبكوات السناجق المائتين وتسعين، كل من هؤلاء أحاط نفسه بحاشية، تقوم منطقته الإدارية بالصرف عليها. وكان الصوبا شيه، يستعينون بقوة الشرطة، وهي تحت تصرفهم، للابتزاز من أفراد الشعب، دون موارية أو خوف من أحد. وقد أتحدت ذات مرة كل من اليونان والترك في قبرص وكادوا يفتكون بالباشا ويقطعوه إربا إربا، وقد فعلوا ذلك به لجشعه ووحشيته ولبغضهم له.

القضاء:

أنشئ منصب القضاء على أساس عسكري والسلطان مراد الأول هو أول من أنشأ هذا القضاء استمده من النظام المملوكي في مصر.

وفي عهد السلطان محمد الثاني والسلطان سليم الأول هما أول من أنشأ منصبين آخرين هما قاضى أوربا ثم قاضى أفريقية، ولكن لم تكن سلطة هؤلاء القضاة عسكرية فقط وإنما شملت القانون المدني عامة، فكان هؤلاء القضاة يعينون الموظفين القضائيين ونوابهم وهم الذين يشكلون محكمة الاستئناف العليا، ويعلو فوقهم سلطة الصدر الأعظم والسلطان نفسه.

ويلى قضاة العسكر في الترتيب العلماء الكبار قضاة العاصمة وعواصم الولايات ثم العلماء والصغار الذين أسند إليهم القضاء في عشر مدن من مدن الولايات مثل بغداد وصوفيا.

أما قضاة الدرجة الثالثة وما دونها فهم ثلاث طبقات المفتش والقضاة ونواب القضاة.

والقاضي هو صاحب السلطة القضائية في منطقته، فهذا القاضي هو الذي يقضى في غياب المدعى العام في القضايا المدنية والجنائية بما يتفق مع الشرع الإسلامي، وعليه القيام بأعمال الكاتب العدل وإعداد الوصايا.

وقد حاول بايزيد الأول إدخال إصلاحات في القضاء ليحد من إنحياز القاضي لأحد أطراف التقاضى دون الآخر وذلك في عام ١٣٩٤/٧٩٧ فجعل للقاضي رسوماً قضائية معينة ولكن لم تؤد إلى نتيجة.

رجال الدين:

اسندت سلطة الإشراف على رجال القضاء ورجال الدين منذ عهد السلطان سليم الأول إلى مفتى استانبول باعتباره "شيخ الإسلام" وحددت مهمته بالفتوى فيما يسند إليه من المسائل القضائية، ونادراً ما تخلف قاصد عن تنفيذ أحكام مفتى استانبول .

ومنذ محمد الثاني وسليمان الأول ثبتت حركة مفتى استانبول على رأس إدارة الدولة جميعها. وقد رفع السلاطين أنفسهم من قدر المفتى وتأييد سلطته، لأنهم في الأوقات العسيرة طالما لجأوا إلى المفتى ليسندهم في أعمالهم الحربية سنداً شرعياً، فيقف الشعب والجيش مع السلطان.

وقد أسند إلى المفتى المناصب الدينية في العاصمة أما في الولايات فقد قام بها قاضي العسكر.

وعادة ما كان يوكل من منشئ المساجد ترشيح العاملين بالمسجد الصغير.

أما المساجد الكبرى فلها أكثر من واحد، واقتصرت مهمة الإمام في المساجد الكبرى على الصلاة بالناس في الأوقات الخمسة يومياً. ويتقدم واعظ الجمعة أو الخطيب ، ومهمته تقوية الروح المعنوية للجماعة بالرياضالت الروحية.

وجعل القيم مسؤولا عن نظافة المسجد والغاية به أما المؤقتين فهم وحدهم الذين يعينون مواقيت الصلاة، بساعات الزوال، هذا غير المؤذنين الذين يؤذنون لدعوة الناس لحضور الصلاة، وهؤلاء هم طبقة رجال الدين والسلطان محمد الثاني هو الذي نظم الوظائف الدينية، بمرسوم خاص، بحيث كان المرشحين للمناصب الدينية يتلقون تعليمهم في المدارس التي انتشرت في جميع الأنحاء بفضل تنافس السلاطين على إنشائها في العاصمة، والولايات بجوار المساجد عادة.

انتظمت هذه المدارس ثلاث طبقات هم: صوفته المعيدين (المعلمين).

وصوفته وهو الصوفى وقد بلغ هؤلاء في عهد مراد الثاني تسعين ألف طالب تفرقوا في أنحاء الدولة العثمانية وكان لهؤلاء دور في النواحي السياسية خاصة في العهود الحديثة للدولة.

والمعيدين أو المعلمين . وهذا الطالب يحصل على شهادة في نهاية الدراسة، ويلقب بأشمند أو عالم وعليه تجديد أتجاهه بعد ذلك، إما التدريس أو القضاء، والعمل الديني.
ومن يرغب في مواصلة التعليم عليه التقدم لتحصيل العلم في أحدى المدارس مدة سبع سنوات ثم يرشحه المفتى لمنصب مدرس إذا نجح أما المفتى في الامتحان.
أما هؤلاء المدرسون فهم عشر طبقات حسب أهمية المدن. وكان صغار العلماء يختارون من بينهم.
أما كبار العلماء فهم الذين توفدهم مصر إلى العاصمة العثمانية، وهم النقشبندية، والمولوية والبكتاشية. وضعف خضوعهم لرجال الدين أصحاب المناسب الرسمية في الدولة.

الحياة الفكرية:

ظهرت في الدولة العثمانية، الكتب وفروع العلم المختلفة باللغة العربية. كما ظهرت بعض كتب الإرشاد وكتب الوعظ الديني باللغة التركية ليطلع عليها عامة القراء.
ولقد أمتاز العلماء العثمانيون بالذاكرة الجامعة في التطبيق والجلد الصبور، كما أنهم نشطوا في تحصيل العلوم الشريفة وظهر منهم علماء ألفوا في اللغة العربية وأخذوا مكانهم بين العلماء من البلاد الإسلامية الأخرى. فالعثمانيون أخذوا العلم من العرب كما أخذوا التاريخ من الفرس.

التاريخ:

وقد كتب العلماء العثمانيون التاريخ باللغة الفارسية كما كتبوا باللغة التركية. وأول من ألف كتابا في التاريخ الوطني هوا لمتصوف أحمد عاشق باشا زادة في عهد بايزيد الأول، إلا أنه أخذ في كتابته بالأسلوب الشعبي البسيط.

ثم أهتمت الدولة بعد ذلك وفي عهد بايزيد الأول أيضاً بكتابة التاريخ، وبعد سعد الدين المتوفى في عام ١٥٩٩/١٠٠٨ أول المؤرخين الذين عينتهم الحكومة للتأليف في التاريخ وقد شغل سعد الدين منصب مؤدب الأمراء، وقضاء الجيش والإفتاء.

الجغرافيا:

تجول أمير البحر التركي "بيرى رئيس" في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. في البحر فوصف شواطئ البحر المتوسط عن طريق رحلاته البحرية بقيادة عمه كمال رئيس، ثم بقيادة بربروسا فيما بعد.

وقد جمع معلومات ضد أسبانيا والبرتغال عن الاكتشافات التي تمت في أميركه. ولم تهمل أسبانيا والبرتغال سرية رحلات رجال البحر عندهم، إلا أن الأتراك استعانوا ببعض الإيطاليين وتمكنوا من الحصول في عام ١٥١٣/٩١٩ م على خريطة كولومبس، وتمثل المحيط الأطلسي مع أميركة والشواطئ الغربية، من أوربا وأفريقية.

وقد ظهرت عليها الأسماء بالشكل الإيطالي، قدمها العملاء الإيطاليون.

وفي عام ١٥١٧/٩٢٣ تسلم السلطان سليم هذه الخرائط وهو في القاهرة. وقد حفظت هذه الخرائط في قصر السلطان، ولم تنشر كما لم ينتشر كتاب البحر الذي ألفه أمير البحر التركي من قبل.

ثم عثر عليها بعد ذلك في عام ١٩٢٩/١٣٤٨ في مكتبة السراية كما عثر على كتاب آخر قدم للسلطان في عام ١٥٢٩/٩٣٢ وبالكتاب اكتشافات عن أميركة الجنوبية والوسطى، وفي الأرض الجديدة (نيوفوند لاند).

كما أفتتح عدن أمير البحر بمصر عام ١٥٤٧/٩٥٤ مسقط عام ١٥٥١/٩٥٩ ثم حاصر هرمز على الخليج العربي (خليج البصرة) ثم انسحب بعدما علم بقدوم اسطول معاد بقصده، فانسحب عائداً إلى مصر.

ثم ظهر حاجى خليفة وهو من أعظم العلماء العثمانيين شارك في الحملات الآسيوية كموظف إداري بالجيش فتمت له بالملاحظة الشخصية معرفة جزء عظيم من الإمبراطورية العثمانية، ظهر له كتاب "لوامع النور في ظلمة أطلس مينور" وذلك في عام ١٠٦٥-١٠٦٦ / ١٦٥٤-١٦٥٥. وهو ترجمة تركية لكتاب "الأطلس الصغير" الذي وضعه "مركاتيور" "هوندياس" واستعمل حاجى خليفة لترجمته هذه طبعة آرنهايم عام ١٦٢١/١٠٣١ مستعيناً بفرنسي كان قد أعتنق الدين الإسلامي وتسمى باسم "إخلاص شيخ محمد أفندي".

وقد رفع إلى السلطان محمد الرابع على ١٦٤٨/١٠٥٨ كتابا في تاريخ الكون والموجودات إسمها "جهاننما" فلما أنجز ترجمة الأطلس الصغير عمد إلى كتابة هذا فأخرجه إخراجاً جديداً بالكلية على أساس الأطلس المشار إليه وتميزه من المصادر الأوروبية ولكنه توفى عام ١٦٥٧/١٠٦٨ م قبل إتمامه وكان قد نشر في السنة التي سلفت كتابا في تاريخ البحرية العثمانية اسمه " تحفة الكبار في أسفار البحار".

الأدب والشعر:

عرف الأدب والشعر طريقة إلى العثمانيين كما عرف العلم طريقة إليهم، ونبغوا في العلم أكثر. كما عرفوا الأغاني والحكايات الشعبية وأنتشرت كثيراً بينهم خاصة تلك التي تغنى بها الدراويش، ونفخت فيهم روحاً قوية من التصوف والدين.

ومن ذلك قصائد "يونس أمره" وأزدهر هذا الفن في المراكز الرئيسية من الدولة وفي النواحي الشرقية منها.

كما اصطنع ساعر الطريقة الحرفية "نسيمى" لهجة الأناضول الشرقي وأذربيجان في منظومة في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي. واصطنع اللهجة نفسها في القرن السادس عشر شاعر من بغداد اسمه "فضولي".

كما انتشرت القصص الشعبية من حياة الرسول والجيش الشهيد. وحياة الأولياء من الصالحين من الصوفية وسلاطين العصور السابقة وأبطال الحروب تستخدم أسلوب نثري بسيط فيأخذ بمجامع القلوب خاصة بين الفلاحين والجنود.

وهناك من القوالب الشعرية مثل (المحمدية) التي نظمها يازيجى أوغلو الغالبو يلى عام ١٤٤٩/٨٥٣ وقد حظيت بمكانة مرمرقة من الأتراك الذين على الجانب الآخر من البحر الأسود. ولكن لك ينحذب. جماعات المثقفين إلى مثل هذه الفنون. وقد أعجبهم الشعر الفارسي، فعمدوا إلى دراسته والتعمق فيه، وخاصة أنهم أمتازوا بصفات المثابرة والإتقان. وقد ظهر "سروري" الذي برع وظهر في عهد سليمان الأول فوضع تفسير لآثار الشاعر سعدي وكذلك "سودى" البشناقي.

وبلغ اهتمام الترك بفن الشعر الفارسي أن السلطان سليم الأول نسه نظم ديواناً كبيراً بلغة الفرس.

السكان:

بسط العثمانيون سلطانهم على كثير من بلدان العالم. في شتى أنحاء المعمورة، وسهلوا لشعوب الأرض الدخول في عداد العنصر الحاكم بساطة العثمانيين، فامتزجوا بهم في يسر وسهولة.

لذلك رحب العثمانيون بمن دخل في الإسلام وأمتزج بهم ولحق ببلاطهم، ومنحوه حقوق المواطنة كاملة حتى أن أسرة ميخال أوغلوه تنحدر من أصل يوناني ، وهي حتى أن أسرة ميخال أوغلو تنحدر من أصل يوناني، وهي إحدى أربع أسر شكلت الارستقراطية العثمانية.

أما في ختام القرن الثاني عشر الهجري، والثامن عشر الميلادي الذي تحولت فيه الدولة العثمانية من الهجوم إلى الدفاع وظهر في تلك الفترة أن الضمان لسلامة الأتراك العثمانيين ، وهو تنافس الدول الأوروبية حيث تتعارض المصالح بينهما، فلذلك فضلت

تلك الدول بقاء الحال على ما هو عليه بدلا من أن يفتح باب الصراع بينهما فتفسد أحوال أوربا.

على أن هذا الضعف السياسي الذي لحق الدولة العثمانية لازمة ضعف في الحياة الفكرية.

فلم يعد يهتم سلاطين الدولة أو وزرائها أقل عناية بالشعر أو بالأدب.

ومع ذلك فقد ظهرت بعض المحاولات الفردية. وظهر من الشعراء من ينتقد الحياة الاجتماعية انتقاداً مريراً.

كما ظهرت كتاب (سيا حتنامه) الذي روى فيه أولبا جلبى المقدسى بعد عام ١٦٧٩/١٠٩٠ بقليل قصة رحلاته وأسفاره، ولقد شارك جلبى هذا في الحروب الروسية والمجر.

وطاف وقت السلم في أنحار الدولة العثمانية وولاياتها وزار مصر والشام، وقد تناول القصص الموضوع على السنة الحيوان، كما كتب عن الخوارق والمعجزات. وقد جمع كتابه مادة غزيرة عن أحوال الدولة العثمانية وتكلم في كتابه هذا عن الأدب العثماني والثقافة الإسلامية.

كما ظهرت جمهرة صالحة من كتب الرحلات مثل كتاب (رسمي) عن انطباعات، أما كتاب جلبى فقد تفوق بوصفه الرشيق وصورة النابضة بالحياة.

الفنون والآثار:

بعد ما تم للعثمانيين فتح القسطنطينية ، عمدوا إلى تحول كنيسة صوفيا إلى جامعا للعاصمة.

وفي سبيل تنفيذ هذا التحويل، تمت بعض تعديلات بسيطة، بحيث تتمشى مع التعاليم الإسلامية. فقام الفنيون بعمل تغطية بطبقة من الكلس فوق الصور المعلقة والتي كانت تزين العقود في البناء.

كما أقيم محراب في وسط جناح الكنيسة الجنوبي، وإلى يمين المحراب على عمود الكنيسة الجنوبي الشرقي الكبير. أقيم المنبر تجاه المقصورة بمشبكاتها الخشبية المذهبة.
ثم قام العمال الفنيين بكتابة اسم الجلالة واسم الرسول وأسماء الخلفاء الأوليين مرقومة بماء الذهب على لوحات مستديرة كبيرة أقيمت على جدران الجامع وأساطينه.
وأقيمت المآذن الأربعة، رفعت الاولى في عهد السلطان محمد، ثم أضيفت الثلاثة الأخرى في عهد السلطان سليم وخلفائه.
كذلك أقام السلطان سليم هلال من البرونز قطره ثلاثون مترا فوق القبةا لرئيسية للجامع.
كما عدل المخطط الأصلي لكثير من القباب الجرمانية عن شكله الأول بسبب من أضرحة الأساقفة التي أقيمت فيها.
كما أضيف إلى الجامع بعد ذلك، مثل المدارس والدعائم الخارجية .
وقد كلف السلطان محمد الفاتح أحد المهندسين اليونايين ببناء الجامع المحمدى أو جامع محمد الفاتح في قلب العاصمة وعلى أنقاض الكنيسة الرسولية، فأخذ في بناء المسجد في المدة ٨٦٨/٨٧٤-١٤٦٣/١٤٦٩ فكان البناء من أورع الآثار المعمارية في الدولة.
وفي العاصمة العثمانية الجديدة بنيت عشرة مساجد ثم بنى السلطان محمد الفاتح في عام ١٤٥٩/٨٤٦ المسجد القائم قرب ضريح الشهيد أبي أيوب الأنصاري الذي توفى ٥٩هـ/٦٧٨ م أثناء الهجوم العربي الأول على القسطنطينية . فلما ألقى العثمانيون الحصار على القسطنطينية رأى الشيخ آق شمس الدين. فيما يرى النائم، مكان القبر ، فأكتشفه بالقرب من السور. وإلى جانب هذا المسجد المشيد كله بالرخام الأبيض، وفي مقام الشهيد الذي لا يعدو أن يكون بناء مربعاً بسيطاً تعلوه فيه كان السلاطين يقلدوه، في احتفال رسمي، عقب ارتقائهم العرش، سيف عثمان من يد شيخ الطريقة المولوية، (بيوك جلبى) كما دفن عدد من السلاطين بجوار هذا المقام، وكذا أقربائهم وكبار النبلاء والوجهاء.
كما أقيمت بعد ذلك مكتبات الحقت بتلك المساجد جمعت الكثير من الآداب الإسلامية.

كما ألحقت بالمساجد معاهد للتعليم بها سكنى للطلاب وللأساتذة. ومستشفيات ومطاعم للفقراء وخانات وحمامات وآبار.

ومن آثار السلطان محمد الفاتح أيضاً إعادة إنشاء الأسوار المحيطة بالمدينة. وبنى قلعة الأبراج السبعة عند الطرف الجنوبي الغربي من المدينة.

كما أنشأ السلطان الفاتح أحواضاً للسفن، ودور صناعة (مخازن للسلاح) في الميناء.

كما شيد السلطان محمد القصور بقى يعضها على حاله على مدى الأيام كأثر من الآثار الإسلامية العظيمة.

وفي عام ١٥٥٠/٩٥٧م بدأ السلطان سليمان في إنشاء جامع في استانبول فأق جامع أي صوفيا في جمال آثاره الفنية العثمانية، فقد شيد المهندس الصحن الخارجي في كثير من الفخامة وتتمثل في ياب سلطاني أقيم على الطراز الفارسي مقابل المحراب. ونهضت فوق زوايا الصحن الأمامي أربع مآذن.

أما البناء الرئيسي ذو البلاطات الثلاث فتتوجه فيه فخمة تقوم على أربع أساطير مربعة، وهي أعلى من قبة آيا صوفيا بخمسة أمتار.

كما ازدادت جميع جدران الجامع وأعمدته بطبقة من الرخام المتعدد الألوان، وأما الجدار الخلفي فيزهو هو والمحراب، بالقاش في الفارسي.

وقام بزخرفة تسع من النوافذ بهذا الجدار الخفي سرخوس إبراهيم أشهر الرسامين على الزجاج في ذلك العصر فأخرجها في ألوان متوقدة شديدة الوهج.

أما المهندس سنان باشا فقد بنى بتكليف من السلطان سليمان واحد وثمانين جامعاً كبيراً واثنين وخمسين مسجداً صغيراً،/ وخمسا وخمسين مدرسة وسبعة معاهد لدراسة القرآن، وسبعة عشر مطعياً عمومياً وثلاث مستشفيات وسبعة كتاتيب لحفظ القرآن وسبعة جسور وثلاثة وثلاثين قصراً، وثمانية عشر خانا، خمسة متاحف، وثلاثة وثلاثين حماماً، وتسعة عشر ضريحاً أو قبة.

وفي عهد السلطان بايزيد الثاني، تم تحسين شبكة الطرق والمواصلات التي أقامها السلاطين من قبل في طول البلاد وعرضها مستعينين في ذلك بأمهر الصناع من اليونان والبلغار.

وقد يسرت هذه الشبكة من حركة المواصلات العامة وقدمت خدمة جليلة للإعمار والتنمية. ومن أعظم آثار بايزيد العمرانية ذلك المسجد الذي يحمل اسمه والمشيد بين أعوام ٨٥٧-٩٠٩/١٤٥٣-١٥٠٣ تجاه السرايا القديمة في استانبول. وقد امتاز هذا المسجد من بين مساجد المدينة بفخامة مواده البنائية وزخرفية على الطريقة الفارسية، وتطل رواقه الأمامي أشجار السرو والدلب والشامخة وتحيط به من جهاته الأربع عقود محدده مصنوعة من الرخام الأبيض والأسود على التوالي ناهضة على أعمدة ثمينة من اليشب والمرمر الأخضر ذى التيجان الرشيقة مخروطية الشكل أعلاها أوسع من قاعدتها. وتعلو هذه العقود سقائف مقببة فخمة الزخرف.

ويرتفع في وسط الصحن االحوض المثمن على عدد من الأعمدة.

وللمسجد أربعة أبواب خارجية عالية، صنعت على الطريقة الفارسية، ويمتاز هذا المسجد بمآذنه التي لا تقام، شأن المساجد الأخرى على الزوايا، ولكن على أجنحة مستقلة.

والواقع أن الحي المحيط بالمسجد ويشمل "السر عسكر" مقر الجامعة في الوقت الحاضر. ما لبث أن عرف كله بحى بايزيد.

ولقد استفاد العثمانيون عن طريق ضريبة الغلمان من زهرة شباب الأمم الخاضعة لهم فترة طويلة من الزمن، وكان هؤلاء آل (عجم أوغلان) بمثابة، معين يقدم إلى الدولة كبار موظفيها الإداريين.

وقد كان لتشجيع العثمانيين ولوضعهم الاجتماعي أكبر الأثر في جذب كثير من رعاياهم بالدخول في الإسلام مثل الألبان والبوشناق والبلغار وأهل جزيرة كريت.

على أن المسيحيين واليهود عاشوا حياتهم في العهد العثماني بأجلى معاني الحرية الدينية حتى أن بطريرك الرم في القسطنطينية عاش وله من القوة والسلطان ما لم يكن له في عهد بيزنطة نفسها.

ولما كانت شعائر الدين المسيحي تقام علانية وفي فخامة وأبهة، أشاعت الدولة للجميع حياة هادئة حتى أن الإنكشارية قامت بخدمة الكنيسة في المناسبات الكبرى بالمرابطة أمام الأبواب.

كما لجأ اليهود المطرودون من أسبانيا والبرتغال إلى أحضان الدولة العثمانية حتى بلغ عددهم نحو عشرين ألفا وشغلوا وظائف في القصر السلطاني ونالوا الحظوة لدى السلاطين منهم من شغل وظيفة طبيب ومنهم المهرجين من المضحكين والمشعوذين.

كما نافس الأرمن اليونانيون واليهود في خدمة الدولة العثمانية.

الأسطول والجيش

الأسطول:

اشتغل خير الدين بربروسا بأعمال القرصنة في البحار في جنوب غرب أوربا وشاركه فيها أخوه عروج، ساعد بربروسا الأندلسيين المطرودين من أسبانيا بنقلهم إلى البلاد المغربية في الجزائر وتونس.

واتفقا مع أبي عبد الله الحفصى الخليفة التونسى ليتخذا من جزيرة جربة في تونس قاعدة لضرب الأسبان وتحرير الساحل الجزائري، وقد تمكنا الأخوان بربروسا وعروج من طرد الأسبان من الشواطئ الإسلامية في تونس والجزائر.

ثم بعث خير الدين بربروسا إلى السلطان سليم العثماني يعرض فيه خدماته، ويعلن ولاءه له هو وفتوحاته في الساحل الجزائري.

وقد رحب السلطان سليم بخير الدين – بعد فتحه مصر مباشرة – وألحقه بخدمته برتبة (بكلربك) أمير وبعث إليه بألف جندي تركي مع مدفعيتهم وسمح له بزيادة عددهم بانضمام المرتزقة إليهم وأن يمنحهم حقوق الانكشارية وامتيازاتهم.

وفي عام ١٥١٩/٩٢٥ قام خير الدين بهجوم على تونس ثم فتح بعد ذلك الجزائر، حيث كان قد أنشأ جيشاً جديداً.

وفي عام ١٥٣٤/٩٤١ أحتل تونس نفسها. ثم أنتقل خير الدين بعد ذلك إلى استانبول ، وقد عزم على أن يواصل الحرب ضد الأسبان بقوة وعزيمة استمدها من السلطان العثماني الذي عينه أميرا للبحر عام ١٥٣٣/٩٤٠ .

وفي عام ١٥٣٧/٩٤٤ أعلن سليمان الحرب على البنادقة، ففقدوا خلال ثلاث سنوات جميع ممتلكاتهم في بحر إيجه حتى سواحل أفريطس وتينوس وميقونوس.

ولما قامت الحرب بين فرنسا وأسبانيا هاجم، خير الدين بقيادة أسطول تركي الشواطئ الإيطالية.

ولما عقد صلح عام ١٥٤٤/٩٥١ أنسحب خير الدين بالأسطول ثم توفى بعد عامين، وقد ترك للدولة العثمانية أسطولاً معد إعداداً ممتازاً، وبحارة تمرسوا بالمعارك البحرية، وهكذا أصبح للسلطان قوة بحرية فعالة، فأخذ السلطان الفرصة لتنفيذ مشروعاته.

لقد زادت عدد سفن الأسطول العثماني إلى ثلاثمائة سفينة، وفي عهد السلطان سليما وفق أمير البحر التركي بربروسا إلى توطيد سلطان الأسطول العثماني.

كما أن العثمانيين تفوقوا في الثروة المادية بفضل الغابات القائمة على شواطئ البحر الأسود التي أمدتهم بمعين لا ينضب من الأخشاب.

أما المعادن الضرورية لصناعة الملاحة فقد قدمتها مناجم الأفلاق والبغدان وكذا أقماش الأشرعة فقد استورده العثمانيون من فرنسا.

كما ساتعان العثمانيون في الإشراف على صناعة الأسطول بالبنادقة، أما صناع السفن وعمالها، فمن اليونانيين الذين لم يداوموا على العمل في صناعة، السفن وإنما تركت للظروف، فلم تكن منتظمة.

ولقد تعجبت أوربا كثيراً للسرعة والمرونة التي قام بها العثمانيون لبناء أسطولهم البحري.

إلا أن صناعة السفن في الدولة العثمانية لم تصل مع ذلك حد الإتقان المطلوب لهذه الصناعة ، وضمان نجاحها.

وبينهما وصل عدد الربابنة من قادة سفن البحرية العثمانية إلى أربعمائة وخمسين ربان إلا أن العاملين منهم فعلا لم يزد عن مائة وخمسين وذلك في عام ١٠٠١/١٥٩٢م. وكان غالبيتهم من الطليان أو اليونانيين الباحثين عن المغانم التي كثيراً ما وجدوها وهم في خدمة الأسطول العثماني.

وشكل الأسطول العثماني من دروع ثقيلة (ماعون) تنتظم كبراها ٥٧٦ مقذفا من العبيد وقد بثت عام ٩٨٣/١٥٧٥ من طردات خفيفة، متوسط عدد مقذفيها مائة وخمسون.

وكانت مدفعية الأسطول ضعيفة في أول أمرها ولم تستوعب أكثر من عشرين مدفعاً في كل قارب.

وبعد معركة (ناوبا قتوس) التي هزم فيها العثمانيون عمد العثمانيون إلى تعزيز أسطولهم فزادوا من عدد مدافعهم لزيادة قوة الأسطول القاذفة.

ثم عهد العثمانيون إلى أمير البحر برباروسا بالإشراف على جزر بحر إيجه، والولاية على أربعة عشر سنجقاً.

وتطور منصب أمير البحر حتى صار أكثر المناصب ربحا في الدولة وأعظمها شأناً.

الجيش:

بداية قامت الدولة بتكوين القوات المسلحة على أساس النظام والإقطاعي، بحيث أن الجنود المستحقون للمكافأة يمنحون إقطاعاً صغيراً، يؤخذا هذا الإقطاع من الفلاحين المالكين الذين يزرعونه، ويمنح إقطاعاً يغل وخلا سنوياً بين ٣٠٠٠، ٣٠٠٠٠ (أقجة) بينما يواصل الفلاحون زراعته، ويقدم صاحب الإقطاع الجديد للدولة عددا من الفرسان ما بين أثنين إلى أربعة أو عدد من البحارة لخدمة الأسطول. ويطلق على هذا الإقطاع تيمار.

ويمكن أن يمنح هذا الإقطاعي إقطاعاً أكبر يطلق عليه (زعامت) (الزعيم) الذي يبلغ دخله ١٠٠,٠٠٠ "أقجة" أن يقدم للدولة لكل خمسة آلاف "أقجة" "رجلاً" والأقجة الفضية تعادل ربع زنه درهم، واختلفت قيمة الأقجة من عهد إلى آخر انخفاضاً وارتفاعاً.

وهناك الإقطاع الذي يطلق عليه "خاص" وهي أعلا من "الزعامت" وهذه "الخاص" تمنح للولاة المحليين، وهي مميزة من حيث أنها لا تتعرض للتفتيش من قبل الدفتردارين كما يحدث في الاقطاعات الأخرى.

وبلغ عدد الفرسان المقدمة من الاقطاعات الأوربية نحو من ثمانين ألف فارس أما الأراضي المقطعة في آسيا فلم يزد ما تقدمه من فرسان عن خمسين ألف فارس.

أما الولايات الفارسية، فقد تعذر إنشاء ولايات جديدة حيث لا أحد يرغب في الحصول على أي منها لأنها لم تحتمل أي زراعات بها، حيث ترتب على كثرة الحملات الحربية في تلك المنطقة أنها خربت ولم تعد صالحة للزراعة.

أما الفرسان الذين خدموا الجيش العثماني على النظام الإقطاعي، فقد استخدموا القوس والنشاب، والرمح الخفيف والسيف القصير، وأحياناً المخصة الجديدة والمجن الصغير المستديرة. وقد استمرت هذه الأسلحة بين قوات المناطق الآسيوية المسلحة مدة أطول من غيرها من المناطق الأخرى، كالأوروبية مثلاً.

وعرفت الدروع والخوذ الشابكة تدريجياً أما لباس الرأس فهي العمامة. أما تربية الخيول فهي أهم دور يقوم به الإقطاعي فإذا أهمل في هذه الناحية فإنها تفقده إقطاعه الذي يعيش من ريعه.

أما الاقطاعات العسكرية فشكلت ألوية وسناجق وتطورت من سنجقين فقط للدولة إلى أن صارت مائتين وتسعين سنجقاً. والسنجق يحكمه، بل يعقد له لواؤه.

وكذلك عرف هذا النظام عند العرب فكل شيخ أو رئيس قبيلة له لواؤه الخاص به.

وهؤلاء السناجق في الدولة العثمانية يحكمهم اثنان يدعى كل منهما "بكلربك" ويحملان أيضاً لقب باشا وجعلوا مقر قيادة باشا الأناضول أنقره ثم نقل إلى كوتاهية في عام ١٤٥١/٨٥٥م.

أما باشا الروم فاتخذ صوفيا مقراً له. وأما بكلربك الروم أرفع رتبة ومميزاً بثلاثة من أذيال الفرس بلوائه بينما لواء الأناضول مميز باثنين فقط.

وجعلوا السلطان قائداً أعلى للجيش يمثله وعلى الأمراء الخضوع له، والطاعة.

\ولما اتسعت رقعة الدولة العثمانية لجأ السلطان إلى تعيين باشوات جدد له في آسيا، وهم في الواقع دون باشوات الأناضول درجة، في نفس الوقت الذي بلغت جيوشهم أعداداً أكبر بكثير من المناطق الأوروبية.

ثم لجأت الدولة إلى دمج بعض السناجق إلى بعض حتى تؤلف البشالق أو الولايات،. بلغ عدد هذه الولايات في القرن التاسع عشر السبعين.

على أن النظام الإقطاعي الذي كان أكبر نجاحه في الموطن الأصلي للعثمانيين، ثبت فشله بعد الإتساع العظيم الذي حققته الدولة العثمانية. ويرجع ذلك إلى أن البكلربك عمد إلى تفتيت إقطاعه وتوزيعه بين غير مستحقيه ممن يعلمون معه من الإتباع، بينما أنشأنه الدولة ليناله من يقدم للدولة خدمة عسكرية ممتازة. ولذلك عمد السلطان سليمان إلى إيجاد "قانون نامه" الذي أثدر في عام ١٥٣٠ حيث حرم البكلربك حق التحكم في إقطاعه إلا بعد الرجوع إلى السلطة المختصة.

كذلك صار أبناء الإقطاعيين عليهم إثبات مقدرتهم العسكرية قبل أن يمنحوا حق إقطاع له. فإذا بلغ أحدهم التاسعة عشر ولم يقدم عملاً عسكرياً فهذا يحرم من إقطاعه إلا أنه عند تطبيق قانون نامه غالبا ما خالفه الإقطاعيون، تهرباً من الضرائب التي أخذت قيمتها تزداد يوما بعد يوم.

كما ورثت المرأة بحيث إذا مات زوجها تحل محله في الإقطاع الذي خلفه.

وقد شكى عينى على ناظر المالية في عهد السلطان أحمد الأول من أن أصحاب التيمارات الذي يتنازعون على الموارد وقت الحصاد لا يظهر من كل عشرة من المتنازعين وقت الحصاد إلا واحد فقط وقت طلبهم للخدمة العسكرية على أن هذا المصلح الكبير لقى حتفه بسبب صراحته في إظهار الحق بهدف الإصلاح خدمة للدولة.

وهؤلاء الذين شكلوا الجيش العثماني في عصر الإقطاع كانوا في الحقيقة هم نواة الجيش العثماني الذي خدم الدولة العثمانية بدلاً من القوى الإقطاعية فيما بعد.

أما أقدم فرق المرتزقة فهي فرقة السباهين فرسان الباب العالي. وكانت خيولهم تزدان بأنواع المعادن النفسية من الذهب والفضة والجواهر، أما الفرسان فيلبسون ثياباً من القماس المحلى بالقصب ومختلف الألوان من الحرير، فهو إما قرمزى أو من لون الزعفران الأصفر أو الأزرق الغامق.

أما أسلحتهم فهي القوس والنشاب والرمح والسيوف القصيرة المرصعة بالأحجار الكريبمة، ثم صولجانا معلقاً بقربوس السرج وهم محقون في الاهتمام بأنفسهم وخيولهم فهم حياتهم الجهاد والحروب المستمرة فلا عجب أن ينفقوا عليها وعلى أنفسهم من أغلى أنواع المعادن والأحجار الكريمة.

واستخدم العثمانيون الأسلحة النارية حيث كان يستخدمها الأوروبيون كما يستخدمها الأوربيون كما يستخدمها المغاربة في أقصى الغرب من البحر المتوسط.

أما السباهون، فقد اعتمدوا في حروبهم على القوس والنشاب، وظلوا كذلك حتى نهاية القرن العاشر الهجري. السادس عشر الميلادي.

ثم تطور الجيش العثماني بعد ذلك بعد السلطان أورخان. فتحول عدد الفرق فيه من أربع إلى إحدى عشر ألف وخمسمائة، وبلغ الجيش هذا العدد الكبير في عهد سليم وسليمان حوالي عام ١٥٣٤/٩٤١.

وقد غذبت فرق الجيش العثماني من الأطفال الذين أسروا في الحروب وتربوا في أحضان السراى في القيادة العليا للجيش، وكذلك من الأفراد حديثي العهد بالإسلام.

وقد أكلت هذه الفرق الحربية العثمانية الحروب مع الفرس وذلك أن الفرس لم يكونوا يتركوا المدن التي تقع في أيدي العثمانيين قبل أن يدمروها فلا يجد العثمانيون من يقف معهم يستمدون منه العون على التقدم في البلاد فأرهقوا الجنود العثمانيين حتى أعلنوا حركة العصاية ضد قيادتهم في الميدان، حتى اضطروا السلطان العثماني إلى النزول في الميدان ليقود الجيوش بنفسه في حروبه ضد الفرس.

لثم لما اشتدت وطأتها الأنفاق على القياد وتعذر عليهم صرف مرتبات الجنود ثار هؤلاء السباهين مرة أخرى، معلنين عجزهم عن مواصلة القتال.

وظلت الأحوال متطورة إلى الأسوأ. منذ أواخر القرن العاشر الهجري وأوائل القرن الحادي عشر الهجري / السادس عشر والسابع عشر الميلادي.

أما قوات آل (آقينجى) طلائع الجيش الخيالة فقد اكتفوا بالاعتماد على إعفائهم من الضرائب وعلى ما يحصلون عليه من الغنائم في الحروب، وتشكلت هذه الفرق الأخيرة. من الفلاحين الذين يعملون تحت نظام الإقطاع.

وقد برعت تلك القوات في حروبها في أوربا وسهول البندقية وفي جبال الألب وفي المجر، منذ منتصف القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، فغنموا وسلبوا حتى أترفوا وساقوا مئات الألوف من أهالي تلك البلاد الأوربية.

كما قامت قوات البغدان والأفلاق بل ومن التتار والكرج (جورجيا) والأكراد – وكانوا يقدمون الجزية – بمثل ما قامت به قوات آل "آقينجى)

كما أن خان شبه جزيرة القرم يحتفظ بخمسين ألف مقاتل يهاجمون حدود بولنده،أما الكرج والأفلاق فيحاربون الفرس.

الانكشارية:

مثلت الإنكشارية القوة الرئيسية للجيش العثماني، وغذيت فرقة الانكشارية من أبناء النصارى الأسرى في الحروب، الذين نشأوا في مناطق أدرنه والسراية القديمة والسراية الجديدة في استانبول، وفي بيرة في دور الحجاب القيادة العليا للدولة. وقد التزمت الدولة في تربيتهم النواحي الإنسانية مع الجدية في التدريب، وذلك حتى يشبوا أقوياء متشعبين بروح الفروسية.

أما المختارون لوظائف حجاب السلطان فهم من الصف الأعلى الذي لم يزد فيه عددهم عن خمسة وثلاثين شابا فهم يعدون لتولى أعلى المناصب في الدولة وقد أسندت إلى كثيرين منهم مناصب الصدر الأعظم.

أما الضرائب التي تحصل من الأهالي، وهي ضريبة الغلمان فقد تعدلت أكثر من مرة ثم ألغيت في نهاية المطاف وذلك في نهاية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي.

وقد أخذت الدولة بجمع الغلمان بين العاشرة والخامسة عشرة الذين يتمتعون بصحة جيدة لإلحاقهم بالخدمة العسكرية بعد تدريب وتعليم متواصل. ولكن هؤلاء الصبية كان ينتظرهم دائماً مستقبل مشرق حتى أن الأتراك أنفسهم كثيراً ما كانوا يقدمون أبناءهم في صفوف هؤلاء الأطفال من النصارى ليضمنوا لهم حياة كريمة في مستقبل أيامهم ثم تحول قبول الخدمة في الانكشارية من سن الخامس والعشرين إلى سن أقل بعد الحروب الفارسية وهبط عدد الجنود الانكشارية إلى نحو خمسة عشر ألف رجل، بل وأصبحت الانكشارية بعد حركات التمرد التي ظهرت بينهم إبان الحروب الفارسية بحيث دفعت

الدولة العثمانية إلى صرف اهتمامها بالانكشارية حتى صارت تفكر في تسريحها، وتطوير النظام العسكري إلى شكل جديد.

ولم يكن يسمح للإنكشارية بالزواج فلما سمح لأفراد هذه الفرقة بالزواج في نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، تحولت الانكشارية إلى الالتحاق بالوراثة دون العناية بالمقدرة على أداء الخدمة العسكرية، ثم ضعف أمر الإنكشارية بعد ذلك فاضطروا إلى الاشتغال ببعض الصناعات اليدوية. أو كما فعل ضباط الانكشارية إلى الالتحاق بخدمة السفراء الأجانب.

والسلطان محمد الثاني هو الذي أعطى عناية عظمى لإدخال تحسين في صناعة المدافع وأحضر المعلمين من ألمانيا والمجر، حتى جاء عهد بايزيد الثاني بالفرق الخاصة بالمدفعية "طوبجى" ثم وصل عددها إلى ألف رجل في عهد السلطان سليم الأول ثم تطورت في عهد السلطان سليم الأول ثم تطورت في عهد السلطان سليم إلى فرق مدفعية جبلية ألحق بها قوافل التموين، وقد بلغ عدد البعير المخصص لتموين الحملات الحربية ضد النمسا في عام ١٥٢٩/٩٣٦م إلى نحو أثنين وعشرين ألف بعير محملة بالدقيق، فضلاً عن البغال التي تماثل عدد البعير وهذه المؤن ارتبطت بفرق آل "وينوق" المؤلفة من الفلاحين والبلغار، أولئك الذين يقومون بالخدمة مقابل إعفائهم من الجزية.

أما المدفعية الجبلية وفرقة مصلحى الأسلحة "جبلية جى" تتقدمان الجيش عند الهجوم.

أما الانكشارية فهم يرافقون طليعة الجيش ويتبعهم أغواتهم، واثنان من قضاة العسكر والمحاسبون وأما السلطان فيحيط به حرسه الخاص وحجابه ووراءه بيرق الحرب وهو علم الدولة ثم استبدلت به راية الرسول منذ عهد سليم الأول، ثم ألوية الجيش الستة الخاصة بفرق الجيش المختلفة بخلاف ستة أعلام صغيرة للسباهيم المرتزقة ويحتل القلب الصدر الأعظم والوزراء مع الحاشية الخاصة بهم ثم يلى هؤلاء باشا الروم إيلى وباشا الأناضول ثم جمهرة الفرسان الإقطاعيين. على أن باشا الروم يتقدم زميله في الحملات الأوربية وباشا الأناضول يتقدمه في الحملات الآسيوية.

أما المؤخرة فجماعة العتاد والمؤن، وعند ابتداء المعارك يتقدم الصفوف باشا الروم وباشا الأناضول أما الجناح الأيسر فهو في محل الشرف ويدعم كلا الجناحين فرقة مدفعية وأخرى خيالة (أقينجى) يتلوها فرسان السباهين.

أما الانكشارية ففي القلب، وخلفهم السلطان وبجانبه بيدق الحرب وحاشية السلطان.

وقد أجمعت المصادر الأوربية على روح النظام في الجيش العثماني. فليس فيه خمر أو قمار أو بغاء، تلك التي عانت منها الجيوش الأوروبية ولا شك أن لهذه الأسباب أخذت الجيوش العثمانية مكان الصدارة دائماً.

المصادر والمراجع

أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥م.

بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن أحمد ابن اياس، القاهرة مطابع الشعب، ١٩٦٠.

البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، بيروت ١٩٦٠م.

تاريخ الترك في آسيا الوسطى، بارتولد ترجمة أحمد السعيد القاهرة، مطبعة الأنجلو المصرية ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دمشق، دار الفكر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، تحقيق الدكتور احسان حقي، دار النفائس، الطبعة السادسة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

تاريخ الإسلام، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

تاريخ المشرق العربي، عمر عبدالعزيز عمر، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية.

جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، زيادة أبو غنيمة، دار الفرقان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، د. عبدالعزيز الشناوي، مكتبة الانجلو المصرية، مطابع جامعة القاهرة عام ١٩٨٠م.

الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، قيس جواد العزاوي، مركز دراسات الإسلام والعالم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

الدولة العثمانية، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، د. جمال عبدالهادي، د. وفاء محمد رفعت جمعة، علي أحمد لبن، دار الوفاء، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

الشعوب الإسلامية، الأتراك العثمانيون، الفرس، مسلمو الهند، د. عبدالعزيز سليمان نوار، دار النهضة العربية، طبعة ١٤١١هـ/١٩٩١م.

الشرق الإسلامي في العصر الحديث، حسن مؤنس مطبعة حجازي القاهرة الطبعة الثانية، ١٩٣٨م.

صحوة الرجل المريض، د. موفق بني مرجه، دار البيارق، الطبعة الثامنة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦.

في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبدالرحيم مصطفى، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م/١٤٠٦هـ.

فلسفة التاريخ العثماني، محمد جميل بيهم، أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها – شركة فرج الله للمطبوعات، بيروت، ١٩٥٤م.

مذكرات السلطان عبدالحميد، تقديم د. محمد حرب، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية د. حسان علي حلاق، دار الجامعة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.

اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد نوري النعيمي، مؤسسة الرسالة دار البشير، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

في التاريخ الاوربي الوسيط ، جمال الدين فالح الكيلاني ، مكتبة المصطفى ، القاهرة ، ٢٠١١.

هــذا الكتاب

" لخص جوانـب عدة من التاريـخ العثمانـي،

لا سيما التاريـخ السياسي وبـعض الجوانـب الحضارية المهمة،
وأعجبـنـي بـوجه خاص استيعابـه لتاريـخ هذه الدولة الكبيرة
المترامية الأطراف، وفي تضاعيف حقبة زمنية

جاوزت الستة قرون عددا.

يجمع الكتاب بين الآكاديمية والمعاصرة في منـهجه

مع عرض موجز للمادة مما جعله مرجعا ميسرا " .

أ.د.عماد عبد السلام رؤوف

❑❑❑